الباب الثاني

نظريته في الولاية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

عرض تاريخي لفكرة الولاية
إلى عصر الحكيم

لاحظنا في الباب الأول مدى اهتمام الحكيم الترمذي بفكرة الولاية ، وكيف جعل الأولياء أولى الناس بكافة المناصب العلمية والدينية من حيث إن الله تعالى قد ملأ قلوبهم بأنوار حكمته ، واختصهم برحمته لولايته ، واصطفاهم ووفى حظوظهم من المشيئة ، وبالجملة جعل لهم محلاً خاصًا في عنايته ورعايته .

ولم تكن فكرة الولاية جديدة في محيط المجتمع الإسلامي ، وخاصة في المحيط الصوفي ، لكنها كانت عند الحكيم الترمذي حجر الزاوية في جميع مذهبه ، حولها يدور ، وعليها يقوم ، ونحوها يتجه ، وإليها يشير ، فهي المقصود بالحديث في معظم آثاره ، والمسيطرة على جميع اتجاهاته وأفكاره ، وليس ذلك مستغربًا إذا لاحظنا أنها هدف يقصده كل سالك لطريق المتصوفين ، وغاية يرنو إليها جميع الطالبين ، وكل طريق لا تؤدي إلى هذه الغاية ، ولا تؤتي هذه الثمرة ، فهي ـ ولا شك ـ طريق عقيم ، حتى كان التصوف في اعتبار بعض الباحثين مدرسة لتخريج الأولياء(١) .

وإذا كان معظم الشيوخ السابقين والمعاصرين للحكيم قد وجهوا جل عنايتهم نحو الإعداد النفسي والتربية الروحية وتأهيل المريدين لهذا المقام السامي ، مما هو أدخل في باب الوسائل ، فإن الحكيم الترمذي يفترق عنهم في أنه ، بادئ ذي بدء ، جعل الغاية ـ وهي مقام الولاية ـ مركز اهتمامه ،

---

(١) نيكلسون : الصوفية في الإسلام ص ١٢٠ ترجمة الأستاذ نور الدين شريبة .

فأولاه جل عنايته ، ووجه إليه عظيم همته ، فجمع له أصوله حتى أوعى ، واستكمل مباديه ونهاياته حتى استقصى ، وقد عبر الهجويري عن ذلك بقوله : فاعلم أن أساس التصوف والمعرفة قائم على الولاية ، وقد أكد هذه الحقيقة كل الشيوخ ، وإن اختلفت عباراتهم في ذلك ، وكان محمد بن علي الحكيم هو أول من طبق هذا الاصطلاح على أصول التصوف[1] ، وعبر عن ذلك بعض المحدثين بقوله : فمذهب الترمذي في حقيقة أمره مذهب الولاية[2] . وإنه ليكفي أن يلقي الإنسان نظرة على ثبت كتبه الذي يحتوي على عدد من الكتب الموسومة بلفظ أو آخر مضاف للأولياء ، مثل «علم الأولياء» و«ختم الأولياء» و«سيرة الأولياء» ، وغيرها من مسائل ورسائل ، ليعرف مدى اهتمام الحكيم الترمذي بهذه الناحية ، هذا الاهتمام الذي أثمر لنا في النهاية نظرية متكاملة عن الولاية .

ولقد ثار حول نظريته في الولاية كثير من المناقشات ، ولم يسلم الحكيم نفسه من آثارها ، فاضطهد حتى خرج من بلدته ، لكن أفكاره ظلت تعمل عملها ، وتقوم بأداء دورها ، سواء عند مريديه ، أو عند معارضيه ، واستفاد بها كثير من أعلام الصوفية كل على حسب طريقته ومذهبه[3].

من ذلك نرى أن إدراك نظريته في الولاية أمر ضروري لكل من يريد أن يلقي ضوءًا كاشفًا على مذهبه في التصوف ، بل ربما يكون مفتاحًا ضروريًا لكل من يريد أن يتتبع فكرة الولاية عند اللاحقين من الصوفية .

ولما كانت هذه الناحية بهذه المثابة ، فإنه ينبغي أن نعرض بنبذة إلى فكرة الولاية منذ ظهرت في مستهل الإسلام إلى أن صارت ما هي عليه عند الحكيم .

---

(١) نقلاً عن مقدمة الدكتور علي عبد القادر وأربري لكتابي الرياضية وأدب النفس ص٢٢.

(٢) عبد المحسن الحسيني : المعرفة عند الحكيم الترمذي ص ٣٣ .

(٣) مثل ابن عربي ، وابن عطاء الله السكندري .

وتدور مادة الولاية ـ بفتح الواو وكسرها ـ لغة على القرب ، ثم على ما يتصل به من معان مختلفة ، كالمحبة والنصرة والمؤازرة والسلطان وتدبير الأمر والمتابعة .

وقد استعملت في الإسلام ، ووردت في القرآن والسنة ، حيث اصطبغت بصبغة خاصة ، واتجهت اتجاهات تتناسب وما وردت من أجله ، وأصبحت تستعمل بعد ذلك في فروع شرعية مختلفة ، منها الناحية الفقهية ، كولاية اليتيم وولاية العتق وولاية النكاح ، ومنها الناحية السياسية ، وهي ولاية الإمامة ، وليست هذه النواحي موضع بحثنا في هذا المقام .

لكنها استعملت ، من جهة أخرى ، كصفة لله عز وجل ، بالإطلاق ، أو بالإضافة إلى بعض عباده ، كما وصف بها العباد بالإضافة إلى الله ، أو بالإضافة بعضهم إلى بعض .

فمن الآيات التي ذكرت الولاية فيها صفة لله قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى:٩) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (الشورى:٢٨) ، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ (النساء:٤٥) ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنعام:١٤) ، ونسب الولاية إلى نفسه في قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ (الكهف:٤٤) ، ومن الآيات التي وصف نفسه فيها بالولاية مضافة إلى بعض عباده قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (البقرة:٢٥٧) ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران:٦٨) ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٥٠) ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (المائدة:٥٥،٥٦)

﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٥٥) ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (الأعراف:١٩٦) ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الحج:٧٨) ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (يوسف:١٠١) ، ومن الآيات التي نال العباد فيها وصف الولاية بالإضافة إلى الله قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنفال:٣٤)[1] ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ (يونس:٦٢،٦٣) ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الجمعة:٦) وبذلك نرى أن الولاية مسألة متبادلة متصلة من لدن الله لعباده ومن العباد لله .

ثم هنالك بعد ذلك آيات في ذكر الولاية بين المؤمنين بعضهم بالإضافة إلى البعض ، وفي ذكر الولاية بين الكافرين والمنافقين بعضهم بالإضافة إلى البعض ، وفي نسبة الولاية للبعض مصافة إلى الشيطان ، مما لا يخصنا في هذا البحث .

على أن الاقتصار على سرد أمثال هذه الآيات وملاحظتها بمعزل عن بقية الآيات والبيئة الروحية التي أحاطت بها عند نزولها ، وعند استقبالها ، وعند انتشارها بين المسلمين ، لا يساعدنا على استشفاف المعاني التي كانت تحيط بها ، وتجعل مدى تأثيرها ونطاق عملها أوسع بكثير مما تتخيله النظرة العجلى المقتصرة على ما تحمله هذه الآيات من المعاني الإجمالية ، لذلك ينبغي أن نلقي نظرة ـ ولو سريعة ـ على بعض النصوص ذات الدلالات الخاصة التي ترتبط بفكرة الولاية من ناحية أو أكثر ، فلقد شاهدنا بعض

---

(١) على أحد التفسيرين في عود الضميرين إلى الله .

الآيات تعم بولاية الله كل مؤمن ، كقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران:٦٨) وكقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (البقرة:٢٥٧) وكقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (محمد:١١) ثم وجدنا بعضها الآخر يضيق دائرتها ، بتعليقها بالمشيئة الإلهية ، أو بإضافة بعض الأوصاف ، كقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (الشورى:١٣)،﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت:٦٩) ، وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف:٥٦) ، وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة:١٥٣) ، وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (الأعراف:١٩٦) ، وكقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (الجاثية:١٩) وكقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (الأنفال:٣٤) وكقوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ (يونس:٦٢،٦٣) ، ويخرج من نفوذ الشيطان بعض المؤمنين ذوي الصفات المخصوصة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (النحل:٩٩) وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ (الحجر:٤٢) ، وكقوله تعالى : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (ص:٨٢،٨٣) وكقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق:٢،٣) وكقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ (الطلاق:٤) ثم يضع في معرض التحدي لمن يدعى الولاية ممن ليسوا من أهلها ، عامة كانت أو خاصة ، برهانًا يظهر به صدقهم إن كانوا صادقين ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الجمعة:٦) ويرتبط بها قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ (المائدة:١٨) فنفى أن يكون لهم نوع اختصاص .

وإذا كانت ولاية الله تعم حتى تشمل كل مؤمن ، وتخص حتى يرتبط تحققها بمشيئة الله أو بتحقق بعض الصفات ـ بعد تحقق الإيمان ـ كالصلاح والتقوى ، والتوكل والإحسان ، فإن ذلك يفتح الباب ، ولا شك لصورة من صور التقدير تتفاضل بها النفوس حسبما نالت من عوامل التفضيل ، ولم لا والقرآن نفسه يضع الناس درجات، فيقول ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات:١٣) ويصنفهم إلى أصناف قد تكون مجملة في القرآن ، لكنها مع ما يقارنها من آيات وأحاديث تشير إلى تفاوت كبير ، فيقول في سورة فاطر ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (فاطر:٣٢) ويقول في مبادي سورة الواقعة : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ (الواقعة:٧-١١) ، ويقول في نهايتها : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ (الواقعة:٨٨-٩١) ويذكر الذين أنعم عليهم بقوله : ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(النساء:٦٩)، ثم يفتح ـ بعد ذلك ـ باب التفاوت والتفاضل على مصراعيه فيقول في جملة موجزة بالغة ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء:٢١) ونجد في القرآن وصفًا لبعض هذه الدرجات ، فنراه في سورة الرحمن يَعِدُ من خاف مقام ربه جنتين يصفهما بأوصافهما ، ثم يقول بعد ذلك ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن:٦٢) ، ثم يصفهما بأوصافهما ، كما يَعِدُ الذين اتقوا ربهم في سورة الزمر بغرف يصفها بقوله : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (الزمر:٢٠) ، ويصف الرسول ﷺ أهل الغرف بقوله : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف

من فوقهم كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ[1]، ثم هنالك جنة الفردوس ، وجنة عدن ، وهنالك فوق ذلك كله رضوان من الله أكبر ، كما ذكر الله تعالى في قوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة:٧٢) ثم هذه الوجوه التي وصفت بالنضرة وبالنظر إلى ربها يومئذ في قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٢،٢٣) ، من ذلك يتبين أن الولاية بين الله وبين عباده تبدأ في أوسع دائرة وأعم نطاق ، وهي ولاية الله بإطلاق التي هي ولاية الربوبية ، وتقارنها ولاية أخرى ليست بإطلاق ولكنها عامة بالنسبة للمؤمنين ، وهي ولاية النصرة والتأييد ، ثم لا تزال تسمو درجاتها وتضيق دائرة شمولها ، لتصبح في أعلى درجاتها أمرًا بالغ العزة والرفعة ، لا يناله إلا الأفراد .

ولقد يظن أن هذا التصنيف والتفاوت العظيم بين الدرجات العليا أمر يتعلق بالآخرة ، وهو كذلك ، لكنه في نفس الوقت ذو علاقة وطيدة بحياتنا الدنيا ، إن هذه الدرجات والوعود بها لم تذكر وتوصف في القرآن إلا ترغيبًا للمؤمنين لكي يتنافسوا ـ في هذه الدنيا ـ في تحصيل ما يمكن أن يكونوا به أهلاً لتحقيق هذه الوعود في الآخرة ، على أن ذلك سيؤدي بالتالي إلى تحقق وعود أخرى في الحياة الدنيا قبل الحياة الآخرة ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (يوسف:١٠١) ولقوله تعالى : ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (آل عمران:١٤٨) ولقوله تعالى : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (يونس:٦٤) ولقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ (غافر:٥١) وقد روى

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق وفي كتاب الرقاق ، ومسلم في كتاب الجنة .

البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قال : من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » ، وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل إن الله يحب فلانًا فأحبه ، فيحبه جبريل ، فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانًا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض »[1] ، فهنالك ارتباط بينهما بوجه ما ، لأن من يتولاه الله في الدنيا مثل هذه الولاية فهو أهل أن يتولاه الله في الآخرة بما يناسبها من درجاتها ، وإذا ثبتت هذه الولاية لعبد في الآخرة ، فعلى قدرها كانت ولايته لله في الدنيا .

وعلى ذلك فليست مقاييسها مما يمكن لتعارف عليه بالمقاييس البشرية ، فقد روى ابن ماجه عن أبي هريرة رفعه إلى النبي ﷺ ، قال : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى أعمالكم وقلوبكم »[2] ، وروى البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنه « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »[3] ، وفي الوقت الذي يقول فيه ﷺ « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » رواه البخاري ومسلم[4] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق وكتاب الأدب ، ومسلم في كتاب البر .

(٢) أخرجه في كتاب الزهد .

(٣) أخرجه في كتاب الإيمان وكتاب البيوع .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان وكتاب التفسير ، ومسلم في أول كتاب الإيمان .

رسول الله ﷺ، يقول «سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يدخل أحدًا الجنة عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة» رواه البخاري[1] عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ، بل أكثر من ذلك من يدخلون الجنة بغير حساب، كما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، فقال رجل: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: اللهم اجعله منهم، ثم قام آخر فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: سبقك بها عكاشة»[2]، وأهل بدر الذين ذكرهم الرسول ﷺ بقوله: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» رواه مسلم عن علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ[3]: وأهل بيعة الرضوان تحت الشجرة الذين رضي الله عنهم، وأنزل السكينة عليهم في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح:١٨).

وهذه العلاقة التي تربط العبد بالله وبالملأ الأعلى تجري على نسق غير متوقع، فالله يفرح بتوبة عبده أكثر مما يفرح المنقطع الذي أضل راحلته وزاده في الصحراء حتى جعل يستقبل الموت ثم وجدها فجأة، والملائكة يطوفون يلتمسون مجالس الذكر، ثم يسألهم الله عنهم فيغفر لهم ولمن حضرهم ولو لم يكن منهم، وقد يصل العبد الذي تقتحمه العيون وتغمط قدره إلى مكانة بحيث لو أقسم أبر الله قسمه، روى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، ومن تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إليَّ ذراعًا تقربت إليه باعًا،

---

(١) أخرجه في كتاب الرقاق.
(٢) أخرجه في كتاب الإيمان.
(٣) أخرجه في كتاب فضائل الصحابة.

وإذا أقبل يمشي أقبلت إليه أهرول»[1] ، وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتسمون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم ؛ قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم بهم : ما يقول عبادي ؟ قال : تقول : يسبحونك ويحمدونك ويكبرونك قال : فيقول : هل رأوني ؟ قال : فيقولون : لا والله ما رأوك ، قال : فيقول : كيف لو رأوني ؟ قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدًا وأكثر لك تسبيحًا ، قال : يقول : فما يسألوني؟ قال : يسألونك الجنة ، قال : يقول : وهل رأوها؟ قال : يقولون : لا والله يا رب ما رأوها ، قال : فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا وأشد لها طلبًا وأعظم فيها رغبة ، قال : فمم يتعوذون ؟ قال : يقولون : من النار ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا رب ما رأوها ، قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا وأشد لها مخافة ، قال : فيقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم ، قال : فيقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء لا يشقى جليسهم»[2].

وروى البخاري ومسلم عن حارثة بن وهب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «ألا أخبركم بأهل الجنة ، كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره»[3]، وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»[4].

وإذا كان فيما سبق ذكره إشارة إلى أناس لا بأعيانهم ، بل إلى أناس ذات أوصاف خاصة ، فهناك نصوص أخرى تتجه إلى أشخاص بأعيانهم ، وكتب الفضائل عامرة بالكثير من ذلك ، نذكر منها مثلاً ما رواه البخاري ومسلم

---

(١) أخرجه في كتاب التوبة .
(٢) أخرجه في كتاب الدعوات
(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير وفي كتاب الأدب ، ومسلم في كتاب الجنة .
(٤) أخرجه في كتاب البر والصلة والآداب .

عن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «اهتز عرش الرحمن لموت سعد ابن معاذ»[1] ، وما رواه البخاري عن أبي هريرة ، ومسلم عن عائشة رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : «قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي أحد فإن عمر بن الخطاب منهم»[2] ، وما رواه مسلم عن سعد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك»[3] ، وما رواه مسلم في حديث طويل عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال في شأن عثمان رضي الله عنه «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة»[4] وما رواه البخاري ومسلم عن سلمة ابن الأكوع رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «لأعطين الراية أو ليأخذن الراية غدًا رجلاً يحبه الله ورسوله ، أو قال : يحب الله ورسوله يفتح الله عليه ، قاله قبل فتح خيبر ، ثم أعطى الراية لعلي كرم الله وجهه»[5] وما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «لكل أمة أمين ، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[6] بل نوه الرسول ﷺ عن شخص بعينه لم يكن من الصحابة ، وإنما كان من التابعين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، ذلك هو أويس القرني ، روى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن خير التابعين رجل يقال له أويس ، وله والدة ، وكان به بياض ، فمروه فليستغفر لكم»[7].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الأصحاب ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة .

(٢) أخرجه البخاري بلفظ مختلف في كتاب بدء الخلق ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة.

(٣،٤) أخرجه في كتاب فضائل الصحابة .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب المغازي وكتاب الفضائل ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة .

(٦) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة .

(٧) أخرجه في كتاب فضائل الصحابة .

ثم هنالك نصوص أخرى في القرآن والسنة تقص قصصًا مختلفة ذات صلة وثيقة بالولاية من جهة أو أخرى ، منها ما ورد في سورة يوسف عن الرؤى التي رآها فتيان دخلا السجن مع يوسف عليه السلام ، والتي رآها فرعون مصر في عهده أيضًا ، واعتبار يوسف عليه السلام لهذه الرؤى ، وتأويلها ، وما ورد عن أهل الكهف في السورة المسماة باسم الكهف ، من حيث ما اعتزلوا قومهم وما يعبدون إلا الله ، فأووا إلى الكهف ، والضرب على آذانهم ، حيث لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا ، ثم بعثهم والإعثار عليهم ، وما رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبيّ [ابن كعب] « إن الله عز وجل أمرني أن أقرأ عليك ، قال : آلله سماني لك ؟ قال : الله سماك لي ، قال : فجعل أبي يبكي »[1] ، وما روى في بدء الأذان عندما رأى عبد الله بن زيد بن عبد ربه الدعاء بالأذان فأنفذ رسول الله ﷺ رؤياه وأمره بتلقين الأذان لبلال رضي الله عنهما ، روى ابن ماجه عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ قد هم بالبوق ، وأمر بالناقوس فنحت ، فأُرِيَ عبدُ الله بن زيد في المنام قال : رأيت رجلاً عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسًا ، فقلت له : يا عبد الله ! تبيع الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت : أنادي به إلى الصلاة ، قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قال : تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدًا رسول الله ، أشهد أن محمدًا رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، قال : فخرج عبد الله بن زيد حتى أتى رسول الله ﷺ ، فأخبره بما رأى قال : يا رسول الله ! رأيت رجلاً عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسًا ، فقص عليه الخبر ، فقال رسول الله ﷺ : إن صاحبكم قد رأى رؤيا ، فاخرج مع بلال إلى المسجد ، فألقها عليه ، وليناد بلال ، فإنه أندى صوتًا منك. قال :

---

(١) أخرجه في كتاب فضائل الصحابة .

فخرجت مع بلال إلى المسجد ، فجعلت ألقيها عليه ، وهو ينادي بها ، قال : فسمع عمر بن الخطاب بالصوت ، فخرج فقال : يا رسول الله ! والله لقد رأيت مثل الذي رأى .

قال أبو عبيد : فأخبرني أبو بكر الحكمي أن عبد الله بن زيد الأنصاري قال في ذلك :

أحمد الله ذا الجلال وذا الإكرام حمدًا على الأذان كثيرا
إذ أتاني به البشير من الله فأكرم به لدى بشيرا
في ليال والى بهن ثلاث كلما جاء زادني توقيرا[1]

ولقد روى البخاري ومسلم عن أنس وعبادة بن الصامت وأبي هريرة رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ قال « رؤيا المسلم جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة »[2] ، وروى ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنه قال « كشف رسول الله ﷺ الستارة في مرضه ، والصفوف خلف أبي بكر ، فقال : أيها الناس ، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرَى له »[3].

ثم ما رواه مسلم أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه حدث « أن أسيد ابن حضير بينما هو يقرأ في مربده إذ جالت فرسه فقرأ، ثم جالت أخرى فقرأ، ثم جالت أيضًا ، قال أسيد : فخشيت أن تطأ يحيى ، فقمت إليها ، فإذا مثل الظلة فوق رأسي ، فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها ، قال : فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي إذ جالت فرسي ، فقال رسول الله ﷺ : اقرأ ابن حضير ، قال : فقرأت ، ثم جالت أيضًا ، فقال رسول الله ﷺ : اقرأ ابن حضير ، قال : فقرأت ، ثم جالت أيضًا ، فقال رسول الله ﷺ : اقرأ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه في كتاب الأذان .
(٢) أخرجه البخاري في كتاب التعبير ، ومسلم في أول كتاب الرؤيا .
(٣) أخرجه ابن ماجه في أول كتاب تعبير الرؤيا .

ابن حضير ، قال : فانصرفت ، وكان يحيى قريبًا منها ، خشيت أن تطأه ، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرح عرجت في الجو حتى ما أراها ، فقال رسول الله ﷺ : تلك الملائكة كانت تستمع لك ، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم»، وفي رواية أخرى لمسلم عن البراء قال : «كان رجل يقرأ سورة الكهف ، وعنده فرس مربوط بشطنين ، فتغشته سحابة ، فجعلت تدور وتدنو ، وجعل فرسه ينفر منها ، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فقال : تلك السكينة تنزلت للقرآن»[1] ، وما رواه مسلم أن عبد الرحمن ابن أبي بكر حدث «أن أصحاب الصفة كانوا ناسًا فقراء ، وإن رسول الله ﷺ قال مرة : من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثلاثة ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس ، بسادس ، أو كما قال ، وإن أبا بكر جاء بثلاثة ، وانطلق نبي الله ﷺ بعشرة ، وأبو بكر بثلاثة ، قال : فهو أنا وأبي وأمي ، ولا أدري هل قال : وامرأتي وخادم بين بيتنا وبيت أبي بكر ، قال : وإن أبا بكر تعشى عند النبي ﷺ ، ثم لبث حتى صُلِّيَت العشاء ، ثم رجع فلبث حتى نَعَسَ رسول الله ﷺ ، فجاء بعدما مضى من الليل ما شاء الله ، قالت له امرأته : ما حبسك عن أضيافك ؟ أو قالت : ضيفك ؟ قال : أو ما عشيتهم ؟ قالت : أبوا حتى تجيء ، قد عرضوا عليهم فغلبوهم ، قال : فذهبت أنا فاختبأت ، وقال : يا غنثر ، فجدع وسب ، وقال : كلوا لا هنيئًا ، وقال : والله لا أطعمه أبدًا ، قال : فأيم الله ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها ، قال : حتى شبعنا وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك ، فنظر إليها أبو بكر فإذا هي كما هي أو أكثر ، قال لامرأته : يا أخت بني فراس ، ما هذا ؟ قالت : لا ، وقرة عيني لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرار ، قال : فأكل منها أبو بكر ، وقال : إنما كان ذلك من الشيطان ، يعني يمينه ، ثم أكل منها لقمة ، ثم حملها إلى رسول الله ﷺ ، فأصبحت عنده ، قال :

---

(١) أخرجهما مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها .

وكان بيننا وبين قوم عقد، فمضى الأجل، فعرَّفنا اثنا عشر رجلاً مع كل رجل منهم أناس، الله أعلم كم مع كل رجل، إلا أنه بعث معهم، فأكلوا منها أجمعون، أو كما قال»[1]، وكذلك ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: رخص رسول الله ﷺ لأهل بيت من الأنصار في الرقية من كل ذي حمة»[2]، ثم روى بعد ذلك عن أبي سعيد الخدري «أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر، فمروا بحي من أحياء العرب، فاستضافوهم، فلم يضيفوهم، فقالوا لهم: هل فيكم راق؟ فإن سيد الحي لديغ، أو مصاب، فقال رجل منهم: نعم، فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب، فبرأ الرجل، فأعطى قطيعًا من غنم، فأبى أن يقبلها، وقال: حتى أذكر ذلك للنبي ﷺ، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: يا رسول الله، والله ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب، فتبسم وقال: وما أدراك أنها رقية! ثم قال: خذوا منهم، واضربوا لي بسهم معكم»[3].

ويقص علينا رسول الله ﷺ قصص قوم آخرين، كانوا في أمم سابقة، منها قصة أصحاب الغار الثلاثة الذين أووا إلى غار في جبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم، فجعلوا يتوسلون إلى الله تعالى بصالح أعمالهم حتى فرج الله عنهم، وخرجوا يمشون[4]، ومنها ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال جريج كان يصلي، فجاءته أمه فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي، فقالت: اللهم لا تمته

---

(١) رواه مسلم في باب إكرام الضيف وفضل إيثاره.

(٢) أخرجه في باب استحباب رقية المريض.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب السلام في باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن، كما أخرجه البخاري في كتاب الإجارة، وكتاب فضائل القرآن.

(٤) انظر في ذلك ما أخرجه البخاري في كتاب الإجارة، وفي كتاب المزارعة، وفي كتاب الأدب، وما أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة.

حتى تريه وجوه المومسات، وكان جريج في صومعته، فتعرضت له امرأة فكلمته، فأبى، فأتت راعيًا فأمكنته من نفسها، فولدت غلامًا، فقالت: من جريج، فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى، ثم أتى الغلام، فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعي، قالوا: نبني صومعتك من ذهب، قال: لا، إلا من طين، وكانت امرأة ترضع ابنًا لها من بني إسرائيل، فمر بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها، وأقبل على الراكب فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه، قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص إصبعه، ثم مر بأمة، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها، وقال: اللهم اجعلني مثلها، فقالت: لم ذاك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون: سَرَقْت زَنَيتِ، ولم تفعل»[1].

كل هذه النصوص اجتزأت بها من مثيلاتها، وليس الغرض من ذكرها هنا مناقشتها أو مناقشة دلالاتها بطريقة فهمنا نحن لها، فسوف نجد في بحثنا عن نظرية الحكيم الترمذي ما يكفي، ولكن المقصود هو محاولة استشفاف بعض المعاني التي كان الصحابة رضوان الله عليهم، والمسلمون الأولون يعيشون في رحابها، أو يحيون فيها وبها، ويأخذونها مأخذ التسليم، دون أن يتكلفوا مناقشتها والتعمق في قضاياها وتفريعاتها، لأنها تقع فيهم ولهم، ولا تقع منهم موقع الغرابة من المتفرج، بل تترك أثرها، لا في عقولهم وحدها، بل في نفوسهم وقلوبهم وسلوكهم، وتظل تعمل فيها تهذيبًا وتأديبًا وتطهيرًا وتطييبًا، وتسلك بها مسالك العناية الإلهية، والمواهب الربانية التي يهبها الله لمن شملتهم عنايته ورعايته بمزيد إكرام واختصاص، على اختلاف مظاهر هذا الإكرام، واختلاف نواحي هذا الاختصاص، وتفاوت درجاته، وإلى هذا المعنى الذي يبرز بوضوح خلال النصوص القرآنية والنبوية السالفة تعود القضايا التي تناولها تفسير الولاية

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب.

لدى طوائف الصوفية فيما بعد ، وبذلك نستطيع أن نجد الرابطة الصحيحة التي ترد الفروع إلى أصولها ردًّا منطقيًّا واقعيًّا ، فلا نتكلف الإغراب في البحث عن أصول أجنبية قبل أن نستقصي الأصول القريبة الواضحة التي تفسر لنا تفسيرًا مقبولاً نظرية مثل نظرية الولاية، وتأصلها ورسوخها في المجتمع الإسلامي ، هذا التأصل والرسوخ الذي لا يمكن معه أن تكون نظرية غريبة أو مستعارة[1] ، ونستطيع بذلك أن نتابع نشأتها وتدرجها حتى ظهرت بما ظهرت عليه ـ فيما بعد ـ عند الحكيم الترمذي ... نعم فنحن نجد كثيرًا من القضايا التي تناولها الصوفيون ـ فيما بعد ـ والتي تتعلق بالولاية ، ذات أصل مكين في حياة الصدر الأول من المسلمين ، لكن الفارق أن الصدر الأول لم يكن ليعتني بإفراد ذلك بالبحث والمناقشة ، وتجميع الأصول والقواعد ، واستخراج الفروع والنظريات ، لأنهم كانوا ـ في الجملة ـ على مثل هذه الحال ، وكان حظهم منها أوفر الحظوظ[2] ، فلم يتجهوا مثل هذا الاتجاه ، لعدم الحاجة إليه في زمنهم ، ولوجود المعلم الأعظم صلوات الله وسلامه عليه بين ظهرانيهم ، يتعهدهم بإرشاداته ، ويزودهم بتوجيهاته ، ويتخولهم بنصائحه وعظاته ، فيستجيبون ويسارعون ، وظهر أثر ذلك كله عليهم بركة وبرًّا وعناية ورعاية ، وأصبح ذلك أمرًا مألوفًا لعموم ظهوره ، فكانوا هم أنصار الله وأنصار رسوله ، وكانوا هم أولياء الله وأولياء رسوله ، بكل معنى من المعاني التي تحملها النصوص القرآنية والنبوية الكريمة .

وإذا أمكن للبعض[3] ـ وهو عسير ـ أن يتوجه بنفي الخصوصية بالنسبة للسيدة مريم ، عندما كانت في كفالة زكريا عليه السلام ، وكانت ﴿ كُلَّمَا

---

(١) انظر مثلاً مناقشة أوليري للقشيري ، ورأيه في أن الصوفية لم يكونوا بأي معنى من المعاني خلفًا للصحابة . الفكر العربي ومكانته في التاريخ ص ١٩٢ - ١٩٣ من الترجمة العربية ، وص ١٨٣ - ١٨٤ من النسخة الإنجليزية .

(٢) انظر في ذلك الرأي القيم الذي قدمه ابن خلدون في مقدمته ص ١٢٠١ .

(٣) راجع كتاب المواقف للإيجي جـ ٢ ص ٤٤٠ ، وحاشيتها ص ٤٩٨ ، وكذلك محمد عبده في رسالة التوحيد ص ٢٠٥ .

دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (آل عمران:٣٧) وبالنسبة لمن كان عنده علم من الكتاب عندما أتى بعرش ملكة سبأ في حضرة سليمان عليه السلام قبل ارتداد الطرف[1] ، ورد هذه الخصوصية إلى الأنبياء عليهم السلام ، فإنه يصعب توجيهه إلى معظم النصوص التي أوردناها فيما سبق ، من حيث إنها ليست جميعًا من باب خوارق العادات ، ومن حيث إن خوارق العادات فيها لا يمكن توجيهها كلها مثل هذا التوجيه ، بل لابد من الوقوف فيها عند حد معين ، لأنه إذا كانت هذه الآثار ترجع إلى يمنه ومنقبته ﷺ ، فإنه ينبغي أن لا نجعل هذه الحقيقة تستغرقنا ، بحيث ننسى الحقيقة الأخرى ، وهي أنهم كانوا في الطرف الآخر أهلا ـ بتوفيق الله تعالى لهم ، ثم بقوة إيمانهم وحسن متابعتهم ـ أن تظهر عليهم آثار هذا اليمن وهذه المناقب ، ولا يصح ـ لهذا ـ أن نفهم هذا المقام على أنه حرمان لأهل الفضل من فضلهم ، وأن نجعله من أعلام النبوة فحسب ، لأن ذلك في الحقيقة تقليل من قيمته ، وطمس لمعناه ، فوق أنه لا يشرف النبوة وأعلامها أن نجرد أتباعها من آثارها الحقيقية بجعلهم مجرد أدوات وصور ، كما تبدو المعجزة في عصا أو في حجر ، ثم إنه بعد ذلك تضييع لغرضه وفائدته ، فتصبح الإشادة به عبثًا ، والحديث عنه لغوًا ، وينمحي معنى الأفضلية التي لأهل هذا القرن ، بل تنمحي حجية هذه الآثار جملة ، وتصبح العبرة فيها قاصرة على تمجيد الله تعالى وقدرته ، وتعظيم الرسول ﷺ وحرمته ، أما الأسوة والقدوة ، والتطبيق والعمل ، فيظلان بمعزل ، وليس ذلك هو كل الحكمة من الدين أو من القرآن أو من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، نرى أن العلوم الإسلامية لم تتميز وتتخذ صورتها المتكاملة إلا بعد مضي فترة من الزمن استغرقتها في التطبيق والعمل حتى استطاعت أن تخرج لنا بنظرياتها وقواعدها المعهودة والمتعارفة ، وليست فكرة الولاية والتصوف في جملته بأمر خارج عن هذه

---

(١) اقرأ الآيات ٣٨-٤٠ من سورة النمل .

القاعدة ، بل شأنه في ذلك شأن سائر العلوم الإسلامية التي نشأت إسلامية صرفًا ، ثم تطورت وتميزت على مرور الزمن ، حتى صارت إلى ما أصبحت عليه فيما بعد ، ولقد أحسن الدكتور إبراهيم مدكور في قوله[1] « بدأ التصوف فعلاً على صورته الفطرية البسيطة منذ الصدر الأول للإسلام ، فلوحظ على كثير من الصحابة ميلهم إلى الزهد والتقشف ، وإعراضهم عن الدنيا ، بل لقد خطا بعضهم في هذه السبيل خطوات فسيحة ، وبالغ فيها مبالغة واضحة ، بيد أن هؤلاء الزهاد والمتقشفين لم يتسمَّوا باسم خاص ، ولم ينتسبوا إلى طائفة معينة ، ولم تطلق كلمة « صوفية » على جماعة محددة إلا في أواخر القرن الثاني للهجرة (القشيري ، الرسالة ، ص٨) وما زال هذا النوع من السلوك ينمو ويزيد أنصاره إلى أن ولد بعض البحوث والنظريات ، والعلم نتيجة العمل ، والنظرية ـ في الغالب ـ وليدة التطبيق » ، « فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله ، والكلام ، والتفسير ، وغير ذلك ، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم ..... وصار علم التصوف في الملة علمًا مدونًا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط ، وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال ، كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك »[2].

وفيما يلي تصنيف لما أشرنا إليه من النصوص التي تتعلق بالولاية ، نكتفي فيه بذكر جزء من النص للدلالة عليه :

١- ولاية الله :

(أ) بإطلاق : ﴿ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ ﴾ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ ـ ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا ﴾ ـ ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ .

(ب) بالإضافة للمؤمنين عامة : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ـ ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ـ ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ ـ ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ـ ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ﴾ .

---

(١) الفلسفة الإسلامية ص ٦٩ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ١٢٠٠ .

(جـ) بالإضافة للمؤمنين مع قيد المشيئة : ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ﴾ - ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ - ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ - ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾ - ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ - ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ .

(د) بالإضافة للمؤنين مع قيد وصف خاص:﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ - ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ - ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ - ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ - ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ - ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ - ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

٢- ولاية العباد :

﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ - ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ - ﴿ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ ﴾ - ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ .

٣- تفاضل المؤمنين واختصاصهم حسب درجاتهم :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا ﴾ - ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ - ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ - ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ - ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ - ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ ﴾ - ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ - ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ - إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف .

٤- الولاية الخاصة مزيد اختصاص :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ - ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ - ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ - « أنا عند ظن عبدي بي » - « إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر » - « رب أشعث مدفوع بالأبواب ».

٥- مزيد الاختصاص في الدنيا وفي الآخرة :

الآيات السابقة في رقم ٤ - ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ - ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ - ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ - ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ - «من عادى لي وليًّا» - «إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل».

٦- حفظ الولي :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ - ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ - ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ - «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان ... »

٧- الكرامات :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ - قصة أصحاب الغار الثلاثة - قصة جريج والغلام الرضيع - قصعة أبي بكر وربا الطعام - ناس من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر ... فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب فبرأ الرجل .

٨- الصلة بالملأ الأعلى :

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ - ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ - «قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون» - «الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له» - نزول الملائكة لقراءة أسيد بن حضير . رؤيا عبد الله بن زيد وعمر ابن الخطاب عن صيغة الأذن - «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة» - نزول السكينة على أهل بيعة الرضوان ولقراءة ابن حضير - «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ».

٩- قيمة العمل :

«الإحسان أن تبعد الله كأنك تراه» ـ «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم» ـ «في الجسد مضغة ـ سددوا وقاربوا» ـ «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفًا بغير حساب» ـ «لعل الله اطلع على أهل بدر» ـ «أنا عند ظن عبدي بي».

ولقد بدأت بعض هذه القضايا تأخذ طريقها إلى التميز والاستقلال عندما أراد الشيعة أن يلبسوا الولاية السياسية ثوب هذه الولاية الخاصة ، فلقد بدأت الشيعة بفكرة سياسية تتعلق بولاية علي رضي الله عنه وأحقيته بالإمامة والخلافة نصًا ووصية ، إما جليًا وإما خفيًا ، وعدم خروج الإمامة من أولاده[١]، ثم أضافوا إلى ما اعتمدوا عليه من آثار دعاوى أخرى تضفي على أهل البيت رضي الله عنهم قداسة دينية خاصة تقوي أدلتهم ، وتبرر عقيدتهم السياسية ، فأثبتوا لهم العصمة عن الكبائر والصغائر ، من حيث إن الإمامة امتداد للنبوة ، وإن الأئمة قد نيط بهم حفظ الشرع كالنبي ، لأن حفظه من أظهر فوائد إمامتهم ، فتلزم لذلك عصمتهم ، كما تلزم العصمة للنبي[٢]، ويبدو أنهم اضطروا إلى إيجاب العصمة لهم من هذه الناحية لأنه لو لم يكن معصومًا لكان شأنه شأن آحاد الأمة ، ولا يكون هناك مبرر عقلي لاختصاصه بالإمامة دونهم ، بل لو ثبت عصيانه لكان أدون حالاً من العصاة من آحاد الأمة ، وذلك نسبة إلى منصبه كإمام ، بل وجدنا بعض غالية الشيعة ، يجيز المعصية على الأنبياء عليهم السلام ، ولا يجيزها على الأئمة ، مفرقًا بينهما بأن النبي يوحى إليه فينبه على وجه الخطأ ، أما الإمام فلا يوحى إليه ولذلك تلزم عصمته وتجب[٣]، كما يقال عن هشام بن سالم ، ولولا أنه كانت لدى الناس فكرة عامة عن عصمة الأنبياء خولت لهؤلاء الشيعة القول بها ونسبتها إلى

---

(١) الشهرستاني : الملل والنحل جـ ١ ص ١٣١ .

(٢) الأستاذ محمد تقي الحكيم : الأصول العامة للفقه المقارن جـ ١ ص ١٨٧ .

(٣) على ما يرويه الشهرستاني في الملل والنحل جـ ١ ص ١٦٥ ، والبغدادي في الفرق بين الفرق ص ٦٧ - ٦٨ .

الأئمة ، لما أمكن القول بها وقبولها لدى أتباعهم بمثل هذه السهولة[1] ، سيما وقد رأينا ـ فيما سبق ـ النصوص الدالة على حفظ الله لبعض عباده ، وتجنيبهم سلطان الشيطان .

ولعل ذلك ـ أيضًا ـ هو ما دعا بعضهم إلى المبالغة في نسبة أئمتهم إلى العلم ، فهم يعتقدون إحاطتهم بالعلوم كلها ، ومعرفتهم الأسرار بجملتها ، وإدراكهم للتأويل الظاهر والباطن[2] ، وساعدهم على ذلك غزارة العلم لدى علمائهم ، وكثرة معرفتهم[3] ، ولكنهم لا يرجعون ذلك إلى الكسب العادي لدى البشر ، والدربة والمعاناة في الدرس وتحصيل العلوم ، بل إلى اختصاص إلهي ، وميراث نبوي يتوارثونه كما يتوارثون الإمامة ، فلا يحتاجون إلى تعلمه ممن سواهم ، ولا فارق عندهم بين الأئمة من حيث كبر السن وصغره ، ولذلك ترى القطعية من الإمامية يقولون : إن المهدي المنتظر هو محمد بن الحسن ابن علي بن محمد بن علي الرضا ، وقد اختلفوا في سنه عند وفاة أبيه ، « فمنهم من قال : إنه كان ابن أربع سنين ، ومنهم من قال : ابن ثمان سنين ، ثم قال قوم منهم : إنه كان إمامًا ، وأدى الطاعة في ذلك الوقت ، وكان عالمًا بجميع معالم الدين »[4]، وبجميع ما يجب أن يعلمه الإمام[5] ، وقد استندوا في ذلك إلى نصوص تهيئ الناس لقبول فكرة الإلهام بوجه عام ، إلا أن هذه الفكرة جعلت تنمو تحت تأثير المبالغة ، والإغراب في التأويل ، والجري وراء التفسيرات الباطنة التي لا تخضع لوضع ولا لمقياس عقلي ، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه لدى بعض الغلاة

---

(١) انظر رأي أحمد أمين في ترجيح أن بحث المتكلمين في عصمة الأنبياء ناشئ عن قول الشيعة في عصمة الإمام ضحى الإسلام جـ٣ ص ٢٢٨ - ٢٣١.

(٢) انظر الملل والنحل للشهرستاني جـ ١ الكيسانية ص ١٣١ والهاشمية منها ١٣٤ .

(٣) وذلك أن أولهم علي بن أبي طالب ثم منهم الحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية ومحمد الباقر وجعفر الصادق وغيرهم رضي الله عنهم .

(٤) الإسفراييني : التبصير في الدين ص ٤٢ .

(٥) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٦٥ ، وانظر في ذلك رأي الأستاذ محمد تقي الحكيم في كتابه السابق ص ١٦٨ ، ١٨١-١٨٤ .

والإسماعيلية الباطنية[1] ، الذين استغلوا فكرة الظاهر والباطن ، فحملوا الكلام أكثر مما يحتمل ، مدعين أن ما يقولونه من علوم الأسرار التي توارثتها الأئمة ، وأدركتها عن طريق الإلهام والمكاشفة ، يموهون الأمر بذلك على العامة من المسلمين الذين يكنون التجلة والاحترام والحب لآل البيت الكرام ، رضي الله عنهم .

ومنذ بداية الحركة الشيعية ، وخاصة بعد استشهاد الحسين رضي الله عنه ، ظهرت فكرة الكرامة التي تخص الإمام كبرهان من الله على صدق ولايته وأحقيته في الإمامة ، وروى أن المختار الثقفي قد استغلها بمخاريق موهها على أتباعه ، فقد روى الشهرستاني[2] من مخاريقه أنه كان عنده كرسي قديم قد غشاه بالديباج ، وزينه بأنواع الزينة ، وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبني إسرائيل ، وكان إذا حارب خصومه يضعه في براح الصف ويقول : قاتلوا ولكم الظفر والنصرة ، وهذا الكرسي فيكم محله محل التابوت في بني إسرائيل ، وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم ينزلون مددًا لكم ، ويبدو أن هؤلاء الشيعة أرادوا أن يثبتوا حقيقة ولاية أئمتهم عن طريق ظهور الخوارق على أيديهم ، وجعلوها قاصرة عليهم ، لئلا يشيع أمر الإمامة في كل من يدعي الكرامة ، وقد استغل المختار هذه الفكرة عندما أراد محمد ابن الحنفية رضي الله عنه أن يزيل فتنته عن الناس ويكشف تمويهه وكهانته ، يقول عبد القاهر البغدادي[3] « ثم رفع خبر المختار إلى ابن الحنفية ، وخاف من جهته الفتنة في الدين ، فأراد قدوم العراق ليصير إليه الذين اعتقدوا إمامته ، وسمع المختار ذلك ، فخاف من قدومه العراق ذهاب رياسته وولايته ، فقال لجنده : إنا على بيعة المهدي ، ولكن للمهدي علامة ، وهو أن يضرب بالسيف ضربة ، فإن لم يقطع السيف جلده فهو المهدي ، وانتهى قوله هذا إلى ابن الحنفية ، فأقام بمكة خوفًا من أن يقتله المختار بالكوفة» .

---

(١) انظر ما ذكره الشهرستاني في ذلك : الملل والنحل جـ ١ ص ١٦٠ ، ١٧٠ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ١٣٣ .

(٣) الفرق بين الفرق ص ٤٧ .

وقد غلا بعضهم فنسبوا إليهم قوة إلهية ، مثل البيانية والنصيرية القائلين بحلول جزء إلهي في علي ، به كان يحارب الكفار وله النصرة والظفر ، وبه قلع باب خيبر ، وكذلك ادعى سائر الفرق الغالية بالنسبة لأئمتهم ، فغير مستغرب منهم أن فضلوا أئمتهم على الملائكة أو على الأنبياء ، على اختلاف بينهم في ذلك [1]، بل زعم بزيغ[2] أن من أصحابه من هو أفضل من جبريل وميكائيل ، ويرى أحمد بن الكيال[3] أن الأنبياء هم قادة أهل التقليد ، وأهل التقليد عميان ، والقائم قائد أهل البصيرة ، وأهل البصيرة هم أولو الألباب .

وكان من أثر غلو كثير من الشيعة في أئمتهم أن قالوا : إن الدين معرفة رجل هو الإمام ، فإذا تمت معرفته فقد تم الدين ، وتطرقوا من ثَمَّ إلى عدم الحاجة إلى الالتزام بأمور التكليف ، فرفعوا التكاليف ، وتأولوا المحرمات واستحلوها[4].

من هذا الذي ذكرناه يمكن أن نلاحظ أن بعض القضايا التي تتعلق بالولاية والتي كانت تؤخذ جملة دون تحديد أو استقصاء بدأت تتحدد وتتخذ طابعًا خاصًا على يد المنتسبين للتشيع ، وتظهر في صورة أو في أخرى ملتزمة حدود الشرع أحيانًا ، ومتجاوزة لها في كثير من الأحيان ، وذلك مثل اختصاص بعض العباد في العلاقة بينهم وبين الله تعالى ، هذا الاختصاص الذي يثمر حفظًا أو كرامة أو إلهامًا أو غير ذلك ، وبدأ ذلك كله يتطور على أيديهم ، ويأخذ صبغة القواعد المقررة والمناهج المحددة ، كما يمكن أن نلاحظ أيضًا ـ وذلك من الأهمية بمكان ـ أن الشيعة نظرت

(١،٢) الشهرستاني : الملل والنحل جـ ١ ص ١٣٦ ، ١٦٠ .

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ١٦٦٣ .

(٤) انظر في ذلك الملل والنحل للشهرستاني جـ ١ عن المقنع ص ١٣٧ والعجلي ص١٥٨-١٥٩ والمعمرية ص ١٥٩ والحارثية ص ١٣٥ .

إلى هذه الخصوصية نظرة تضييق ، فجعلتها ـ وذلك في الأعم الغالب[1] ـ قصرًا على الأئمة ، خشية أن ينتقض الأمر بوجود هذه الخصوصية ، أو بجواز وجودها في آحاد الأمة ، مما تنتقض به دعواهم في تعين الإمامة ، ووجوب تعيين الإمام والنص عليه .

ولسوف نرى فيما بعد أن الصوفية قد استفادوا من كثير من ذلك ، وإن لم يوافقوهم على الكثير ، خاصة في قصرهم الولاية واختصاصاتها على الأئمة.

وإذا كان الشيعة قد ساعدوا على إنضاج هذه المادة وبلورتها ، وتقديمها للصوفية يصهرونها في بوتقتهم ، ويصوغونها حسب طريقتهم ، ويصبغونها بصبغتهم الخاصة ، فإن أهل الكلام قد ساهموا في تقديم قضايا من نوع آخر ، كان لها شأنها أيضًا في اتجاهات القوم .

فعندما قامت الفتنة الكبرى بين المسلمين طرحت قضية مرتكب الكبيرة على بساط البحث ، وظلت بين أخذ ورد ، واشتهر الخوارج الحرورية بتكفيرهم مرتكب الكبيرة حتى لقد كفروا عثمان وعليًا وأصحاب الجمل والحكمين ومن رضي بالتحكيم[2] ، وفي مقابل ذلك أخذ المرجئة بطرف آخر ، فلم يريدوا أن يدخلوا بين الله وبين عباده في أحكامه ، فوكلوا أمرهم إلى الله ، وأخروا الحكم في صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة ، فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار[3] ، وقد تطرق الكلام من ذلك إلى ماهية الإيمان ، وأصبح محور بحثهم يدور عليه ، وقد جعلوا الأعمال خارجة عن مفهوم الإيمان[4] ، وبذلك لا تسلب صفة الإيمان من مرتكب الكبيرة ، ومثل هذا البحث قد دار بين الصوفية في موضوع الولاية ، فبحثوا هل تسقط ولاية مرتكب المعصية أو لا تسقط وارتبطت هذه

---

(١) يلاحظ أن الزيدية من الشيعة تخالف في كثير من هذه الآراء .

(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٧٣ .

(٣،٤) الشهرستاني : الملل والنحل جـ ١ ص ١٢٥ .

القضايا بقضية حفظ الولي[1] ، وإلى أي مدى يكون هذا الحفظ ، وقد تسرب منها البحث أيضًا عن الحسن والقبح ، هل هو ذاتي يمكن إدراكه بالعقل ؟ أو هو بتوقيف من الشارع ؟ .

وإذا كان هذا البحث قد ارتبط لدى المتكلمين بالبحث فيما إذا كانت الطاعة توجب الثواب والمعصية توجب العقاب ، كما هو رأي المعتزلة[2] ، أم أن ذلك راجع إلى محض إرادة الله ، وأنه قد وعد بقبول توبة التائبين ، وإثابة الطائعين ، فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولا دخل للعمل عقلاً في ذلك ، كما هو مذهب الأشعرية[3] ، فإن الصوفية أيضًا قد بحثوا في علاقة العمل بالولاية ، وهل تثمر المجاهدة ، وكثرة الأعمال الهداية والقرب من الله ، وتكون الولاية جزاء وفاقًا لما بذله العبد منها ، أم أن ذلك راجع إلى فضل الله ومنته[4] ، وهو الذي وعد بهداية المجاهدين فيه .

ثم قضية أخرى كان لها شأنها بين علماء الكلام ، ولها جذورها البعيدة في النفس الإنسانية بعامة ، تلك هي قضية القدر ، وإذا أوجب الإسلام الإيمان بالقدر خيره وشره من الله ، فإنه لم يسلب الإنسان إرادته ، ولم يجرده من اختياره ، وربما حصل الخلط بينهما ، فأدى إلى إثارة مناقشات حامية ، وقد بدأ معبد بن عبد الله الجهني بالبصرة القول بحرية الإرادة ، وإثبات الاختيار ، وزعم أنه لا قدر ، وأن الأمر أنف ، وتابعه على ذلك غيلان الدمشقي ، كما قالت المعتزلة بحرية الإرادة الإنسانية ، وفي مقابل ذلك قام جهم بن صفوان من الجبرية الخالصة ـ على حد قول الشهرستاني ـ فلم يثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً ، ولا إرادة ولا اختيارًا ، ورأى أن الأفعال تنسب إلى العبد على سبيل المجاز ، وكل من الاتجاهين يمثل جانبًا من جوانب الحيرة الإنسانية في حل هذا اللغز القديم ، ولسنا الآن بصدد البحث عن سير

---

(١) أبو العلا عفيفي : التصوف : الثورة الروحية ص ٣٠١ .
(٢) الشهرستاني : الملل والنحل جـ ١ ص ٥٠ .
(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٩٢ .
(٤) أبو العلا عفيفي : التصوف : الثورة الروحية ص ١٤٧ .

هذه القضية وكيف انتهت بين الفريقين المتنازعين ، ولكننا نريد أن نصل إلى أن مثل هذه القضية قد أثير أيضًا بين المتصوفة في شأن الولاية ، والولاية ـ ولا شك ـ جزئية من جزئيات هذه القضية الكلية ، فهل تكتسب الولاية اكتسابًا ، وتقتنص اقتناصًا ، عن طريق الجهد والعمل وبذل ما في الوسع اقتدارًا واختيارًا ؟ أم أن الأمر راجع أولاً وأخيرًا إلى الإرادة الإلهية دون أدنى علاقة بالإرادة الإنسانية ؟ وهل هنالك أمر وسط يمكن به التوفيق بين الطرفين في شأن الولاية ، كما حاول الأشعرية فيما بعد أن يحلوا الإشكال بمصطلح الكسب في شأن أفعال العباد .

من كل هذا يمكن أن نلحظ خيطًا دقيقًا يربط بين كثير من المسائل التي تناولها علماء الكلام ، فمهدوا الطريق لكي يتناولها المتصوفة من بعدهم بصورة مماثلة في موضوع خاص من موضوعات التصوف ، هو موضوع الولاية ، وسوف نرى كيف بدأت كل هذه المسائل تأخذ طابعها الخاص على أيديهم .

وقد ينبغي قبل أن نغادر هذه النقطة أن نلاحظ أن هذه القضايا التي أثارها الشيعة والمتكلمون ذات صلة وثيقة بما أوردناه ـ فيما سبق ـ من نصوص ، أو بأمثالها ، فليس من قضية من هذه القضايا إلا ترجع ـ بوجه ما ـ إلى نصوص قرآنية ونبوية ، وقد تكون هذه النصوص شركة أو قسمة بين الفرقاء ، إلا أنها هي الأصل الذي عليه يستندون ، وإليه يرجعون ويتحاكمون .

* * *

فإذا أردنا الانتقال إلى محيط الصوفية ، بعد أن امتازت حركتهم واستقلت لنعرف كيف ظهرت هذه الأفكار ، والمظاهر التي اتخذتها ، وكيف تطورت أو تدرجت إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه عند الحكيم ـ علمًا بأن الحكيم يشغل القرن الثالث منذ بدايته تقريبًا ـ لوجدنا الأمر أصعب مما نتصور . فالولاية ـ كما أشرنا ـ هي لب التصوف ، ولا يتصور متصوف مخلص في تصوفه لا يهتم بهذه الناحية ـ قصدًا أو بدون قصد ، ظاهرًا

أو باطنًا ـ ولذلك لا تخلو إشاراتهم وأحاديثهم عن صلة ما بالولاية في ناحية من نواحيها المتعددة ، فقد كانت قاسمًا مشتركًا بينهم ، يتناولها كل منهم ، حسب وقته وحاله ، ومع أنه يقل جدًا أن تذكر الولاية صراحة في هذه الإشارات أو في هذه الأحاديث .

ولأن الصوفية لم يعنوا بتدوين علمهم وآرائهم إلا في مرحلة متأخرة ، ومعظم ما نجده لهم في مرحلتهم الأولى شذرات ومقتطفات وأقاصيص ، وهي وإن كانت تحمل إشارات قوية إلا أنها تخلو من التفاصيل اللازمة للوضوح ، فوق أن هذه الشذرات التي كانت تقال عرضًا حسب الأوقات ، وتنقل عفوًا حسب المذاكرات ، لا يسهل إيجاد الصلة بينها بحيث يخرج من مجموعها ما يشبه فكرة متكاملة ذات تحديد ، وكثيرا ما نرى رأيين مختلفين لنفس الشخص في قضية واحدة ، وليس ذلك راجعًا لاختلاف الشخصية وتغيرها بقدر ما هو راجع لاختلاف الوقت والمناسبة مما يغير من وجه القضية ، فإذا اجتمع قولان في قضية واحدة ، وأمكن الربط بينهما فقد يمكن الخروج بوجهة نظر متكاملة ـ وإن تكن مجملة ـ في هذه القضية ، أما إذا لم نجد إلا قولاً واحدًا أو أقوالاً غير مستوفية ، إما لأن الصوفي نفسه لم تصادفه مناسبة أخرى للحديث عن هذه القضية من جوانبها الأخرى ، وإما لأنه قلب هذه الوجوه ، ولم تنقل عنه ، وإما لأنها نقلت ، ولم نطلع عليها ، فقد نجازف بالقول بأن هذا الصوفي أوذاك لم يتعرض لجوانب هذه القضية أو تلك بمثل ما تعرض لها فلان أو فلان ، على أن عدم التعرض في نفسه غير كاف كدليل على عدم المعرفة بها ولو إجمالاً .

ثم لأن مثل هذه القضايا إذا أمكن الربط بينها لا تكاد تؤلف نظرية متكاملة في الولاية تشمل سائر نواحيها أو معظم جوانبها الرئيسية ، اللهم إلا إذا تكلف الناظر أو الباحث أن يستخرج من مجموعها لدى مجموع الصوفية مثل هذه النظرية ، فإن مجموع أحاديثهم وما وصل إلينا من إشاراتهم يمس كثيرًا من جوانب هذه النظرية ، بحيث يمكن القول بأن بذور نظرية الولاية كانت مبعثرة في أقاويلهم ، موزعة بين أعلامهم ، لكنهم لم يقصدوا إليها ولم

يتجهوا نحو استيفائها ، بل تحدثوا عن قضاياها عرضًا حسب واردات الأوقات ، وغلبة الأحوال .

لذلك لم يكن معظم هذه القضايا يذكر تحت هذا العنوان ، وقلما ورد لفظ الولاية فيها صراحة ، بل كانت ترد تحت العنوان العام للتصوف ، فلما تكاملت للنظرية عناصرها ، ونمت قضاياها ، كان الحكيم الترمذي أول من توجه هذه الوجهة ، فوضعها بعناصرها ومكوناتها تحت عنوانها الصريح «الولاية» ، وتمكن بذلك من أن ينظر إليها بنظرة شاملة يستوعب فيها ويستوفى ، وكان هذا أمرًا طبيعيًّا وتدرجًا منطقيًّا ، إذ تثار القضايا في أول الأمر منفصلة ، قضية بعد قضية ، وما تزال هذه القضايا تتواءم وتتكامل بالمقارنة والتمحيص حتى تنمو نموًّا كافيًا يخرجها إلى حيز الوجود في مستوى النظريات .

لهذا كله يصعب علينا ونحن نرافق تطور هذه الفكرة منذ بدايتها أن نجزم بأن هذه الصورة التي نقدمها هي صورة التطور الواقعي لها ، خاصة وقد ذكرنا أنها كانت أمرًا شائعًا بين المسلمين كحال من أحوالهم لا يحتاجون إلى تمييزه ، وأن الحاجة إنما مست إلى تمييزه في العصور المتأخرة عن الصدر الأول من الصحابة ومن التابعين ، لكننا نستطيع أن نقول إنها صورة تقريبية ، بعد أن نتابعها حسبما اطلعنا عليه من نصوص ، فقد رأى الصوفية كيف حاول الشيعة أن يقصروا الولاية على طائفة خاصة ، ويقرنوا بينها وبين الإمامة السياسية ، ويتناولوا كثيرًا من قضاياها على هذا الأساس ، فأعادوا فتح بابها لعامة المؤمنين ، كما تفتحت أبواب جديدة للنظر ، بعد المناقشات والمناظرات الكلامية المختلفة التي يتطرق الكلام منها إلى الولاية ، فتناولوها من هذه الناحية بالبحث والتمحيص .

ولكي يسهل علينا تناول الموضوع ، فسوف نتناول عناصره بالتتبع ، ونبدأ بأساس النظرية ، وهي اختصاص الله سبحانه وتعالى لبعض عباده ، وتفضيله بعضهم على بعض بما شاء من فضله ، وهي فكرة دينية ثابتة ، فعلى أي أساس تقوم ؟ هل هو محض اختيار من الله ؟ لا دخل لإرادة العبد

وعمله فيه ؟ أم هو جزاء وفاق لمحض جهد العبد وإرادته ؟ أم أن الأمر قسمة بينهم ؟ فمنهم من اجتباه الله بمحض المشيئة ، ومنهم من اختصه بجهاده وعمله ؟ أم لابد من تطابق الاثنين المشيئة الإلهية وجهاد العبد حتى تتم الولاية ؟ نحن نجد أن قدماء الصوفية قد تعرضوا لذلك ، فالفضيل بن عياض[1] (١٨٧هـ) ومعروف الكرخي[2] (٢٠٠هـ) يشيران إلى أنها فضل ومنة من الله ، وإن يكن كلامهم لا يخلو من إشارة إلى الجهد والعمل ، بينما يشير إبراهيم بن أدهم (١٦٠ هـ) إلى الناحيتين معًا ، ويرى أنها قد تكون بالمنة ، كما حدث له نفسه ، حينما هتف به الهاتف وهو في رحلة الصيد[3] ، وقد تكون بالجهد ، كما روى القشيري[4] أنه قال لرجل في الطواف : اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات ، أولاها : تغلق باب النعمة ، وتفتح باب الشدة . والثانية : تغلق باب العز ، وتفتح باب الذل ، والثالثة : تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد ، والرابعة : تغلق باب النوم ، وتفتح باب السهر ، والخامسة : تغلق باب الغنى ، وتفتح باب الفقر ، والسادسة : تغلق باب الأمل ، وتفتح باب الاستعداد للموت. كما نجد عنده ناحية بالغة الأهمية ، تلك هي إشارته إلى ضرورة إسقاط المشيئة وترك التدبير من جانب العبد ، وذلك بالإضافة إلى بذل الجهد ، قال لأخ له في الله : إن كنت تحب أن تكون لله وليًا ، وهو لك محبًا ، فدع الدنيا والآخرة ، ولا ترغبن فيهما ، وفرغ نفسك منهما ، وأقبل بوجهك على الله ، يقبل الله بوجهه عليك[5] .

فإذا انتقلنا إلى القرن الثالث وجدنا ذا النون المصري (٢٤٥هـ) وأبا يزيد البسطامي (٢٦٠هـ) وأبا القاسم الجنيد (٢٩٧هـ) يشيرون إلى الطريقين معًا،

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٩ ، وطبقات الصوفية للسلمي ص ١٠ .

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ١٠ ، وطبقات الصوفية للسلمي ص ٨٩ .

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص ٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٩ .

(٥) أبو نعيم : الحلية جـ ١ ص ٨٢ والملحق التاريخي بذيل كتاب ختم الأولياء ص ٤٥٢ نشر الدكتور عثمان يحيى .

بمعنى أن هنالك أولياء نالوا ولايتهم بمحض المنة الإلهية ، وآخرين أدركوا بالجهد والعمل ، وتظهر هنا ناحية جديدة ، هي مقارنة أبي القاسم الجنيد بين الولي الذي نال ولايته ببذل الجهد ، والذي نالها بطريق المنة ، يقول : باب كل علم نفيس جليل بذل المجهود ، وليس من طلب الله ببذل المجهود كمن طلبه عن طريق الجود[1] ، ويبدو أن هذا الموقف في تفضيل من نال ولايته من طريق الجود على من نالها من طريق بذل المجهود هو الموقف الذي يميل إليه السابقون له ، وإن لم نعثر لهم على نص صريح في ذلك ، ومع ذلك فهو يعطي للجهد والعمل أهمية كبرى ، بينما يحل لدى الآخرين في الدرجة الثانية ، فيراه أبو سليمان الداراني (٢١٥هـ) مثلاً علامة علي رضى الله أو على سخطه[2] ، بينما نرى في قول أبي سعيد الخراز (٢٧٧هـ) : من ظن أنه ببذل الجهد يصل إلى مطلوبه فمتعن ، ومن ظن أنه بغير الجهد يصل فمتمن[3]، إشارة إلى أن الولاية تكون ثمرة لارتباط الجانبين معًا ، فقد يوجد الجهد ، ولا توجد المنة ، ولكن المنة لا تكون إلا حيث يكون الجهد ، وبذل المجهود لا يوجب الولاية ، لكن إهماله العمل يسقطه عن نظر العناية .

أما يحيى بن معاذ الرازي (٢٥٨هـ) وسهل التستري (٢٧٣ إلى ٢٩٣هـ) فيريان ما رآه إبراهيم بن أدهم من قبل ، حيث يوصيان في هذا الصدد بترك المشيئة أيضًا ، يقول يحيى بن معاذ : ما دام العبد يتعرف فيقال لا تختر شيئًا ، ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف ، فإذا عرف وصار عارفًا فيقال له : إن شئت اختر ، وإن شئت لا تختر ، لأنك إن اخترت فباختيارنا ، وإن تركت الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار[4]. ويقول سهل التستري : ذروا التدبير والاختيار فإنهما يكدران على الناس عيشهم[5]، وسئل أي منزلة إذا قام العبد بها قام مقام العبودية؟ قال : إذا ترك التدبير والاختيار[6].

---

(١) السلمي : طبقات الصوفية ص ١٥٧ . (٢) السراج : اللمع ص ٥٩ .
(٣) القشيري : الرسالة ص ٥ . (٤) السهروردي : عوارف المعارف ٣٣٧ .
(٥) السلمي : طبقات الصوفية ص ٢٠٩ ، وأبو نعيم : الحلية جـ ١٠ ص ٢٠١ .
(٦) السهروردي : عوارف المعارف ص ٣٣٧ .

ومع أنهم أسقطوا اعتبار قيمة العمل ، ولم ينظروا إليه ، فلم أطلع على واحد منهم يقول بإسقاط التكاليف ، أو التقليل من أهميتها ، ولعل الموقف الذي روي عن الجنيد بهذا الصدد يعبر عنهم ، فقد قال رجل للجنيد : من أهل المعرفة أقوام يقولون : إن ترك الحركات من باب البر والتقوى ، فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندي عظيم ، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا ، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله . وإلى الله رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة [1]، وبذلك رفضوا رفضًا قاطعًا ما قال به بعض غلاة الشيعة ، وأصلوا أصلاً لكل من جاء بعدهم من الصوفية ، يصبح الأمر معه واضحًا لكل ذي عينين .

أما العصمة التي أوجبها الشيعة لإمامهم ، فيبدو أن الصوفية حينئذ لم يأخذوها كما هي ، أو لعلهم لم يصدروا عنها إطلاقًا ، لأن وجهة نظرهم في حفظ الولي تختلف تمامًا عما يعرفه المسلمون في عصمة النبي ، بله ما أضافه الشيعة إليها ، من كونها موروثة بالتعدية من إمام إلى إمام ، ومعظم القائلين بها من الصوفية يميلون بها ناحية معنوية ، ولا يوجبونها ، بل يعتبرونها خصوصية يخص الله بها من يشاء ، وإن كانوا يميلون إلى شمولها لكافة الأولياء ، فقد روى الفضيل بن عياض (١٨٧هـ) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى للدنيا : يا دنيا مرى على أوليائي ولا تحلولي لهم فتفتنيهم »[2]، وقال إبراهيم بن أدهم رواية عن رجل من أهل الإسكندرية ، يقال له أسلم بن يزيد الجهني ، قال : إذا كان محتملاً للمكاره أورث الله قلبه نورًا ، قلت : وما ذلك النور ؟ قال : سراج يكون في قلبه يفرق به بين الحق والباطل والناسخ والمتشابه[3] ، ويقول أبو سليمان الداراني (٢١٥هـ): لا يزهد في شهوات هذه الدنيا إلا من وضع الله

---

(١) القشيري : الرسالة ص ١٥٦ .
(٢) السلمي : طبقات الصوفية ص ٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٢١ .

في قلبه نورًا يشغله دائمًا بأمور الآخرة[1]. ويقول أحمد بن أبي الحواري (٢٣٠هـ) : انقطع إلى الله .... فإذا كان كذلك كان له من الله (عونًا ـ كذا) حتى يرده إلى طاعته ظاهرًا وباطنًا[2]. أما أن تأخذ مظهرًا ماديًا محسوسًا ، فكما ورد عن بشر الحافي (٢٢٧هـ) والحارث بن أسد المحاسبي (٢٤٣هـ) وأبي تراب النخشبي (٢٤٥هـ) ويحيى بن معاذ الرازي (٢٥٨هـ) من أن أيديهم كانت تقصر بصورة أو بأخرى عن الحرام ، أو عما فيه شبهة ، ويفرق أبو العلا عفيفي[3] بين عصمة النبي وحفظ الولي بأن عصمة النبي راجعة إلى أمر يخلقه الله في النبي يكون له مناعة من العصيان ، أما الولي فمثل سائر الناس لكن الله يحفظه من المعصية بنور يقذفه في قلبه ، فيهديه ، ويصرفه عنها ، فلو لم يتبع هذا النور لسقط فريسة المعصية ، ولا يمنع ذلك من كونه محفوظًا بأنوار الولاية ، لذلك نجدهم يتحدثون عن ارتكاب الذنوب والمعاصي بالنسبة للولي ، وهل يقدح ذلك في ولايته ، ويسقطه عن درجته ، أم لا يؤثر فيها ، ويتداركه الله برحمته وتوبته ، ويتشدد بعضهم أمثال أبي سليمان الداراني ، وحمدون القصار (٢٧١هـ) وسهل التستري فيرون أن الولاية رهن ببقاء الطاعة ، وأن الكبيرة إذا خطرت ببال الولي سقطت عنه الولاية[4] ، ويرى آخرون أن الولاية لا ترتفع بارتكاب المعصية ما دام ينزع عنها ولا يصر عليها ، كما هو رأي الحارث المحاسبي وأبي القاسم الجنيد[5]، وقد روى القشيري[6] أنه قيل للجنيد : العارف يزني يا أبا القاسم ؟ فأطرق مليًا ثم رفع رأسه وقال : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ (الأحزاب:٣٨)، على أن هذا التساهل أو التشدد إنما هو من الناحية النظرية العقلية فحسب ، أما من الناحية الواقعية والعملية ، فلا يكادون يتساهلون

---

(١) نيكلسون في كتابه : في التصوف الإسلامي ص ٦ ترجمة أبي العلا عفيفي نقلاً عن تذكرة الأولياء جـ ١ ص ٢٣٢ .

(٢) أبو نعيم : الحلية جـ ١٠ ص ٨ .

(٣) التصوف : الثورة الروحية ص ٣٠٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٥) المرجع السابق ص ٣٠١ .

(٦) الرسالة ص ١٧٥ .

حتى في الآداب الشرعية ، فقد روى أن أبا يزيد قال لبعض أصحابه : قم بنا ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية، وكان رجلاً مقصودًا ، مشهورًا بالزهد ، فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، فقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأمونًا على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصديقين[1]، وكما لاحظنا من قبل نجد أن هذه القضية صورة لقضية أخرى في علم الكلام ، هي إيمان مرتكب الكبيرة .

ويمكن لنا الآن أن ندخل في جانب آخر ، لنلاحظ أن الزهد في متع هذه الحياة الدنيا، والتوكل على الله في كافة الشؤون ، من أبرز التعاليم الإسلامية ، برزت من الناحية النظرية في نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، وبرزت من الناحية العملية في حياة الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم ، ولسنا في حاجة أبدًا لإثبات هذا الأصل في مقابل بعض الدعاوى التي تعود بها إلى مصادر أخرى غير الإسلام ، ومن شأن المبادئ الأساسية أن تستتبع عند التطبيق قضايا جزئية ، قد تكون من الأهمية بحيث تصبح رأسًا مستقلاً ، ومن ذلك ما نتعرض له الآن ، فقد اشترك الزهد والتوكل معًا في إثارة قضية أخرى ، أصبحت فيما بعد ذات أهمية خاصة ، تلك هي قضية الكسب .

لقد كان الزهد يمارس بصورة معتدلة ، تتناسب مع ما كان عليه المسلمون في بدء أمرهم من قلة في ذات اليد ، فلما أقبلت الدنيا عليهم ، وانغمس البعض فيها حتى شحمتي أذنيه ، وجدنا على الطرف الآخر قومًا يبالغون في زهدهم ، ويستقصون دواعيه ومظاهره ونتائجه ، حتى سهل عليهم القول بالزهد في الدنيا بأسرها ، لكراهتهم لها بكل ما فيها ومن فيها ، ذكر القشيري[2] أن الحسن البصري قال : الزهد في الدنيا أن تبغض أهلها وتبغض ما فيها ، وحتى نفوا وجود الزهد على الحقيقة ، إذ لا يكون الزهد

---

(١) السراج : اللمع ص ١٤٤ .

(٢) الرسالة ص ٦١ .

إلا في حلال مرغوب ، ومثل ذلك لا وجود له عندهم ، قال أبو حفص : الزهد لا يكون إلا في الحلال ، ولا حلال في الدنيا فلا زهد[1]، ولقد أدت هذه المبالغة في نظرتهم إلى الزهد إلى اكتفائهم بأقل القليل أو بما دون الكفاية ، وعود الكثيرون منهم أنفسهم على البقاء أيامًا ، تكثر أو تقل ، دون طعام أو شراب[2] ، لكنه مهما تصل بهم درجة الزهد ، لا بد أن يصلوا إلى وقت يحتاجون فيه إلى ما يسد رمقهم ، ويبقي أنفاسهم ، وهم إذا هُملوا ـ زهدًا ـ طلب ما يزيد عنه ، فلا بد لهم من الحصول عليه ، فكيف يتم لهم ذلك ؟ هنا يأتي التوكل ، ليأخذ دوره في توجيههم ، ولم يكن التوكل يتعارض عند المسلمين الأُوَل مع الاضطراب والحركة والسعي ، لكنه مع مرور الوقت ، ومع المبالغة والتدقيق أصبح يُنظر إليه في أول مقاماته ، كما يروي القشيري[3] عن سهل بن عبد الله ، بحيث يكون العبد بين يدي الله عز وجل كالميت بين يدي الغاسل ، يقلبه كيف شاء ، لا يكون له حركة ولا تدبير ، فهل يتفق ذلك والقيام بطلب الكسب ؟ أم أن طلب المعاش يتعارض مع الثقة المطلقة في الله ، والاعتماد الكامل عليه ؟ لقد وجدنا من يقتصد ، فلا يرى هنالك تعارضًا بين طلب الكسب والتوكل ، وبالتالي لا يرى طلب المعاش قادحًا في الرلاية ، ووجدنا من يتشدد ، مع تفاوت في درجات هذا التشدد ، إلى أن يصل إلى ذمه ، وإسقاط رتبة من يقوم به .

وإذا ضربنا صفحًا عن ذكر الصدر الأول من المسلمين ، ووصلنا إلى الوقت الذي بدأت تثار فيه هذه القضية ، وجدنا إبراهيم بن أدهم : يقوم بطلب الرزق ، ويعبر عن الكسب بقوله : عليك بعمل الأبطال : الكسب من الحلال ، والنفقة على العيال[4] . ثم بدأ التشدد يظهر في أقوال غيره شيئًا فشيئًا ، فيقول الفضيل بن عياض : أبى الله أن يجعل أرزاق المتقين إلا من

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٦١ .

(٢) انظر مثلاً باب الجوع وترك الشهوة ص ٧٢ من الرسالة القشيرية .

(٣) المرجع السابق ص ٨٣ .

(٤) السراج : اللمع ص ٢٦٠ .

حيث لا يحتسبون[1] ، فإذا وصلنا إلى شقيق البلخي (١٩٤هـ) وجدنا الأمر يزداد تدقيقًا ، وقد تعرض أبو العلا عفيفي لهذه النقطة ، ويحسن أن نورد هنا وجهة نظره ، يقول : « فنرى شقيقًا البلخي المتوفى سنة ١٩٤هـ وهو من أفضل تلامذة إبراهيم بن أدهم يفيض في الكلام عن التوكل الصوفي ، والرجوع إلى الله في كل شيء ....

« يرى شقيق أن التوكل معناه « طمأنينة النفس إلى موعود الله » ، فإذا أردت أن تعرف مقدار صدق الزاهد في توكله ، فانظر بأي الأمرين يأخذ ، أبما وعده الله ، أو بما وعده الناس؟ وإذا كان الرجل لا يستطيع أن يزيد في حياته ، أو يغير من طبعه ، فكيف يستطيع أن يزيد في رزقه ؟ ولماذا يتعب نفسه في اقتناص أشباح زائلة؟ أو يتكالب على المكاسب التي قلما تخلص من الشبهات؟ أدت هذه الفكرة العميقة في الجبرية بشقيق إلى القول بالتسليم المطلق لإرادة الله ، والإذعان التام لقضائه وقدره ، والتعطيل التام للإرادة الإنسانية ، والرضا التام بما هو مقدور في علم الله ، وكان من نتائجه قولان ، كان لهما أثرهما البالغ في تطور التصوف بعد عصر شقيق : أولهما : ترك الكسب ، لأن كل المكاسب مسممة ، وثانيهما : تفضيل الفقر على الغنى »[2] ، وقد أفاض شقيق في هذه المعاني ، ولكني أود أن أورد نصين نقلهما له السلمي في طبقاته[3] ، يتبين منها كيف يرى أنه ينبغي للمرء أن لا يأخذ إلا عندما يخشى أن يكون عاصيًا بالترك ، وذلك إنما يكون عند حالة الاضطرار التي تبيح تناول الميتة ، فقد روى شقيق بسنده عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أخذ من الدنيا من الحلال حاسبه الله به ، ومن أخذ من الدنيا من الحرام عذبه الله به » ، وسئل : « بأي شيء يعرف الرجل أنه أصاب القلة ؟ قال : بأن كل شيء يأخذه من الدنيا ، يأخذه في حالة يخاف ـ إن لم يأخذه ـ أن يأثم » ، وقد نشر هذه المقالة من بعد تلميذه

---

(١) السلمي : طبقات الصوفية ص ١٤ وهو بذلك يشير إلى الآية الكريمة في سورة الطلاق ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق: ٢،٣).

(٢) الملامتية والصوفية ص ٣١-٣٢ .

(٣) ص ٦٢-٦٤ .

حاتم الأصم (٢٣٧هـ) وأحمد بن خضرويه (٢٤٠هـ) ، ومحمد بن الفضل البلخي (٣١٩هـ) ، وأما أبو سليمن الداراني (٢١٥هـ) فإنه مع إسقاطه درجة من يسافر في طلب معاشه ، لا يرى له أن يتفرغ للعبادة ، بينما يتولى غيره أمر معاشه . روى ابن الجوزي[١] عنه أنه قال : « إذا طلب الرجل الحديث ، أو سافر في طلب المعاش أو تزوج فقد ركن إلى الدنيا ، وروى عنه أبو نعيم[٢] قوله :« ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يفت لك ، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد» ، ويتخذ ذو النون من طلب العارف المعاش دليلاً على أنه لا شيء»[٣] . كذلك الأمر عند أبي تراب النخشبي ، فقد ذكر القشيري « أنه نظر إلى صوفي من تلامذته قد مد يده إلى قشر بطيخ، وقد طوى ثلاثة أيام ، فقال له : تمد يدك إلىٰ قشر البطيخ!! أنت لا يصلح لك التصوف ، إلزم السوق» ، ويظل الأمر على مثل هذا التشدد ، ثم يبدأ في التراخي ، ويعود إلى شيء من الاعتدال بعد ذلك ، ولعله يبدأ عند سهل التستري « التوكل حال النبي ﷺ ، والكسب سنته ، فمن بقى على حاله فلا يتركن سنته »[٤].

ومن شأن الزهد الكامل ، والتوكل الصادق ، أن يتركا النفس خالية من المشاغل ، وحينئذ يصبح القلب صافيًا من الشوائب التي تحول بينه وبين المعرفة : وهي من أعز مطالب المريدين ، وأبرز علامات الواصلين ، ولقد قيل لأبي يزيد ، بماذا وجدت المعرفة ؟ فقال : ببطن جائع ، وبدن عار ، فإذا استطاع المرء أن يتخلص من آفات نفسه ، ويتجرد من أوهام حسه ، ويصفي قلبه وسره لمناجاة ربه ، حتى طالعه الله بأنواره ، وكشف له حجب أستاره ، وأفشى له بعض أسراره ، فيما يجريه من تصاريف أقداره ، فقد أصبح عارفًا ، ونال من المعرفة على قدر صفاء قلبه واستنارته ، وإنه لا يكاد يخلو حديث صوفي عن الإشارة إلى هذه المعاني ، على اختلاف العبارات ، حسبما يقع لكل من المشاهدات .

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٨٥ .
(٢) الحلية حـ ٩ ص ٢٦٤ .
(٣) السراج : اللمع ص ٢٦١ .
(٤) القشيري : الرسالة ص٨٤ .

ومع أن المقصود من المعرفة هو معرفة الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته معرفة قلبية تكون لها شواهد وعلامات في نفس العارف حسبما يقتضيه وقته وحاله ، إلا أن هذا المعنى قد توسع فيه ، وأصبح يشتمل على لواحق أخرى مثل تحصيل علم لدني ، أو كشف معنى باطني ، أو إدراك غيب ، أو قوة فراسة ، أو ما شاكل ذلك من هذه الأمور . وقد ذكرنا ـ من قبل ـ ما قاله إبراهيم بن أدهم من أن صفة أولياء رب العالمين نور في القلب يعرفون به الحق والباطل ، والناسخ والمتشابه[1] ، أما معروف الكرخي فيراه علمًا لدنيًا ، حيث يتولى الله تعليم عبده ما يشاء ، يقول : «توكل على الله حتى يكون هو معلمك ومؤنسك ، وموضع شكواك ، فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك»[2]، كذلك كان يراه أبو سليمان الداراني فيضًا وكشفًا وحدة فراسة ، يقول : « إن الله قد يكشف للعارف وهو نائم في فراشه من السر ، ويفيض عليه من النور ما لا يكشفه للقائم في صلاته ، وإذا استيقظت في العارف عين قلبه نامت عين جسده ، لأن العارف لا يرى سوى الحق»[3] ، ويقول : « إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام ، جالت في الملكوت ، وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة ، من غير أن يؤدي إليها عالم علمًا»[4] ، وكان يسمى أحمد بن عاصم الأنطاكي : جاسوس القلوب ، لحدة فراسته[5]، وهذه الفوائد كما تنكشف للعارف في نومه تنكشف له في يقظته ، كما يقول أحمد بن أبي الحواري : « إن الله إذا أحب قومًا أفادهم في اليقظة والمنام ، لأنهم طلبوا رضاه في اليقظة والمنام»[6].

---

(١) السلمي : طبقات الصوفية ص ٣٢ . (٢) المرجع السابق ص ٨٧ .
(٣) نيكلسون : في التصوف الإسلامي ص ٦ نقلاً عن تذكرة الأولياء . ترجمة أبي العلا عفيفي .
(٤) أبو نعيم : الحلية جـ ١ ص ١٤ . (٥) القشيري : الرسالة ص١٩.
(٦) السلمي : طبقات الصوفية ص ١٠١ .

أما الحارث المحاسبي فيحسن أن نورد له قطعة قصيرة جامعة من كتاب الحلية[1] ، يقول : « فقال السائل : رحمك الله ، صف لي من علامات وجود قلبه (قلب من أحبه الله) قال : محوسة يا فتى في سر الملاطفة ، مخصوصة بعلم المكاشفة ، مقلبة بتنعم النظر في مشاهدة الغيب ، وحجاب العز ، ورفعة المنعة ، فهي القلوب التي أسرت أوهامها بعجب نفاذ إتقان الصنع ، فعندما تصاعدت المنى ، وتواترت على جوارحها فوائد الغنى ، فانقطعت النفوس عن كل ميل إلى راحة ، وانزعجت الهموم ، وفرت من الرفاهة ، فنعمت بسرائر الهداية ، وعلمت طريق الولاية ، وغذيت من لطيف الكفاية ، وأرسلت في روضة البصيرة وأحلت القلوب محلاً نظرت فيه بلا عيان ، وجالت بلا مشاهدة ، وخوطبت بلا مشافهة ، فهذا يا فتى صفة أهل محبة الله ، من أهل المراقبة والحياء والرضا والتوكل » .

ويمضي الركب ـ بعد ذلك ـ في نفس الطريق من سري السقطي الذي يناجي الله بقوله « اللهم مهما عذبتني بشيء ، فلا تعذبني بذل الحجاب »[2] ، إلى أبي يزيد البسطامي الذي يأسى للمحدثين قائلاً « مساكين ! أخذوا علمهم ميتًا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت »[3] إلى أبي القاسم الجنيد الذي وصف العارف لسائله بأنه « من نطق عن سرك وأنت ساكت » .

وقبل أن نغادر هذه الناحية ، نشير إلى أن تصريحاتهم تتجه اتجاهًا واضحًا وصريحًا نحو تقرير أن ما يجده العارف بطريق الكشف والإلهام لا يمكن أن يناقض أو يخالف قواعد الشرع الظاهرة ، وإلا كان زائفًا غير مقبول ، يقول أبو سليمان الداراني « ربما تنكت الحقيقة قلبي أربعين يومًا ، فلا آذن لها أن تدخل قلبي إلا بشاهدين من الكتاب والسنة »[4] ، وتعزى إلى

---

(١) أبو نعيم : الحلية جـ ١٠ ص ٩٩ ، ١٠٠ . (٢) المرجع السابق جـ١٠ ص١٢٠ .
(٣) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص ٣١١ ، وانظر أيضًا نقده الحاد لهذه المقالة .
(٤) السراج : اللمع ص ١٤٦ .

ذي النون وسري السقطي العبارة الآتية مع اختلاف قليل في الصياغة «علامة العارف ثلاثة ، لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ، ولا يعتقد باطنًا من العلم ينقض عليه ظاهرًا من الحكم ، ولا تحمله كثرة نعم الله عز وجل على هتك أستار محارم الله»[1]، ويقرر سهل ذلك بكل وضوح ، حيث يقول «كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل»[2] ، ومع هذا فقد ناقش ابن الجوزي[3] كثيرًا من واقعاتهم ، بأنها تخالف صريح الأحكام الشرعية ، وليس لها مستند إلا وارداتهم الصوفية ، التي قرروا هم أنفسهم عدم صحة الاعتماد عليها وحدها ، ويتبين من ذلك صعوبة الاستمساك في هذا الممر المليء بالمزالق والمخاطر ، حيث لا يعتمد على قواعد عامة واضحة ، بل على تجارب روحية ، يمكن وصفها بأنها تجارب فردية ، لا تكاد تتفق في كل نواحيها ، ولا يسهل لذلك التقريب فيها ، والتقعيد لها ، فمن لم يلاحظ التطبيق الحرفي لقواعد الشريعة في مثل هذه الأحوال ، فإنه قد لا يأمن العثار .

ولعل أقرب النواحي اتصالاً بالمعرفة والعصمة هي ناحية الكرامة ، فالمعرفة والعصمة من أعظم الكرامات التي يختص الله بها أولياءه ، لكنها كرامة معنوية ، وإذا تصفحنا أحاديث هؤلاء القوم ، وجدناهم إنما يعولون على الكرامات المعنوية ، أكثر من الكرامات الحسية ، التي وقع الجدال حول ثبوتها بين المتكلمين ، بل ربما صرحوا بعدم العناية بها ، وعدوا وقوعها تأييدًا من الله ، لضعف يقين من وقعت على يديه ، بل ربما نظروا إليها نظرة خوف ، خشية أن تكون هي حظهم من الله ، أو حجابًا يقوم بينهم وبين غاياتهم ، أو استدراجًا من الله لهم ، جزاء على معصية أو غفلة وقعت منهم دون ملاحظة أو إدراك .

ومع كل ذلك ، فكم هي الأقاصيص التي حيكت حول الكرامات الحسية من خوارق العادات، والتي قد يكون ذكرها من باب المبالغة في رفعة شأنهم،

---

(١) القشيري : الرسالة ص ١١ .
(٢) السراج : اللمع ص ١٤٦ .
(٣) تلبيس إبليس : مواضع متفرقة .

والتدليل على علو مقامهم ، وكثير منها ـ ولا شك ـ يحتاج إلى تمحيص ، وقد كان مثار التشكك لدى الكثير ، شأنها شأن كثير من المقالات الغريبة التي زينت بألفاظها المنمقة ، وتوشحت بغموضها المبهم ، ونسبت إلى أسماء ذات رصيد كبير من الشهرة لدى عامة المسلمين ، لتكون سلاحًا ذا حدين ، فإما أن تروج هذه المقالات عند المسلمين ، أو تنهار سمعة هؤلاء الأعلام المشهورين ، وتنهار معهم علومهم ، والنماذج الكريمة التي يمثلونها في نفوس المسلمين .

وأيًا ما كان الأمر ، فقد نسبت إلى الكثير منهم خوارق العادات ، ووصف الكثير منهم في كتب التراجم بأنه صاحب كرامات ، وأكثر هذه الكرامات قبولاً ما كان من باب إجابة الدعاء ، وبر القسم ، وقد روى عن معروف الكرخي أنه قال للسري السقطي يومًا : « إذا كانت لك حاجة إلى الله فأقسم عليه بي »[1] ، ووصف بشر الحافي صنفًا من الفقراء بأنه من الروحانيين إذا سأل الله أعطاه ، وإن أقسم على الله أبر قسمه[2] ، ويقول ذو النون : قال الله تعالى : من كان لي مطيعًا كنت له وليًا ، فليثق بي ، وليحكم عليَّ ، فوعزتي لو سألني زوال الدنيا لأزلتها »[3].

ولن نحاول هنا ذكر شيء من هذه الكرامات التي تمتلئ بها الكتب الصوفية ، ولكني سأشير إلى ما يشبه الإجماع منهم بأن هذه الكرامات لا يعول عليها ، وأن الكرامة الحقيقية هي ما كانت كرامة معنوية ، قد لا يدركها من وقعت له ، أو تكون ذات صلة برقيه الروحي في مدارج السلوك إلى الله ، فإبراهيم بن أدهم يقول : الأخيار الأبرار يغضب الله لغضبهم ، ويرضى لرضاهم[4] ، وسري السقطي يقول : لو أن رجلاً دخل إلى بستان فيه من جميع ما خلق الله من الأشجار عليها جميع ما خلق الله من الأطيار ،

---

(١) القشيري : الرسالة ص ١٠ .
(٢) السلمي : طبقات الصوفية ص ٤٧ .
(٣) أبو نعيم : الحلية جـ ٩ ص ٣٩٤ .
(٤) السلمي : طبقات الصوفية ص ٣٢ .

فخاطبه كل طير منها بلغته ، وقال : السلام عليك يا ولي الله ، فسكنت نفسه إلى ذلك ، كان في يديها أسيرًا[1]، وأبو يزيد البسطامي يراها ألهية المبتدئين ، ويحذر منها أشد التحذير ، فيقول عن نفسه : كان في بدايتي يريني الحق الآيات والكرامات ، فلا ألتفت إليها ، فلما رآني كذلك جعل لي إلى معرفته سبيلاً [2]، ويقول : الذي يمشي على الماء ليس بعجب ، لله خلق كثير يمشون على الماء ليس لهم عند الله قيمة[3] ، وعندما قيل له : فلان يمشي في ليلة إلى مكة ، قال بصراحة تهز : الشيطان يمشي في ساعة من المشرق إلى المغرب في لعنة الله[4] ، ولقد كان رجل يقال له عبد الرحمن بن أحمد يصحب سهل بن عبد الله ، فقال له يومًا : ربما أتوضأ للصلاة ، فيسيل الماء بين يدي قضبان ذهب وفضة ، فقال سهل : أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطون خشخاشة ليشتغلوا بها[5] ، وأخيرًا نذكر ما قاله سهل أيضًا ، والذي نعتبره معبرًا عن وجهة نظر أكابر القوم حينئذ فيما يخص الكرامات ، قال : أكبر الكرامات أن تبدل خلقًا مذمومًا من أخلاقك[6] .

ومما هو غني عن البيان أن القائلين بهذه الكرامات يردونها في مصدرها إلى الله تعالى ، فهو الذي يسخر ما يسخر من القوى الكونية لمن يشاء من أوليائه، إكرامًا له ، وقد سخر الله الملائكة للقتال في صفوف المؤمنين ، ونصر رسوله بالصبا ، كما نصره بالرعب مسيرة شهر ، ولم يرد ما يفيد حرمان أمة الرسول ﷺ من مثل هذا ، ما داموا ملتزمين ما التزم به أوائلهم ، ولم نلاحظ فيما اطلعنا عليه أن أحدًا قد ادعى لنفسه المقدرة استقلالاً على تسخير أي قوة من قوى الطبيعة بطريقة خارقة ، اللهم إلا أن يكون ذلك من جانب المتألهين من غالية الشيعة ، مثل بيان بن سمعان التميمي ، وعبد الله

---

(١) أبو نعيم : الحلية جـ ١٠ ص ١١٨ ، والقشيري : الرسالة ص ١٧٥ .

(٢) السراج : اللمع ص ٤٠٠ .

(٣) أبو نعيم : الحلية جـ١٠ ص٣٩.

(٤) القشيري : الرسالة ص ١٨٠ .

(٥،٦) القشيري : الرسالة ص١٨٠.

ابن عمرو بن حرب الكندي ، والمغيرة العجلي والشريعي والنميري[1] ، نعم قال الصوفية إنهم يستطيعون التصرف في هذه القوى بمقتضى معرفتهم بالاسم الأعظم ، لكن فرق بين تفسير ذلك بأنه يتوسل إلى الله باسمه الأعظم ليقضي له حاجة أو يجيب له طلبًا ، وبين القول بأنه يتصرف بقوة روحية مستقلة ، وأن هذا التصرف ليس من الله إكرامًا له ، لأن هذا المعنى يتناقض مع القول بالتصرف بالاسم الأعظم ، لأن من يزعم أنه يتصرف بالاسم الأعظم ، وهو يقصد أنه يتصرف بقوته الذاتية استقلالاً ، لا يكون في الحقيقة متصرفًا بالاسم الأعظم بل يكون ملحدًا بالاسم الأعظم ، لذلك لا نشارك القائلين به رأيهم ، وبالتالي لا نوافقهم على ما يعقدونه من صلة بين ذلك وبين بعض الآراء المزدكية التي كنت منتشرة في خراسان[2] ، ويرجع القول بالاسم الأعظم إلى فترة متقدمة ، فقد رويت أحاديث كثيرة بشأنها ، ونسبت أقوال إلى مجاهد وابن عباس وزين العابدين وغيرهم[3] في ما يكون الاسم الأعظم ، وقد نقل السيوطي إنكار جماعة ، منهم أبو جعفر الطبري ، وأبو الحسن الأشعري ، وأبو حاتم بن حيان ، وجود الاسم الأعظم ، باعتبار أنه لا يجوز تفضيل بعض أسماء الله على بعض[4]، أما في محيط الصوفية فنجد الحسن البصري (١١٠هـ) يقول : اللهم مجمع الدعاء[5]، كما نجد ذكره في سياحة إبراهيم بن أدهم في بدء أمره حيث يروي أنه رافق رجلاً في البادية علمه اسم الله الأعظم ، ثم غاب عنه ، وقد تبين له فيما بعد أنه هو داود البلخي[6] ، وقد روى لنا أبو نعيم[7] عن ذي النون كيف أجرى اختبارًا لرجل

---

(١) راجع الملل والنحل للشهرستاني ، والفرق بين الفرق للبغدادي ، والتبصير في الدين للأسفراييني .

(٢) انظر مثلاً أبا العلا عفيفي في كتابه التصوف الثورة الروحية ٢٩٨ - ٢٩٩ ، والحسيني في رسالته النزاع بين الصوفية والفقهاء ص ٢١٢ .

(٣،٤) انظر السيوطي : الدر المنظم في الاسم الأعظم .

(٥) نفس المصدر ٧٧ ب .

(٦) أبو نعيم : الحلية جـ ١٠ ص ٤٤-٤٥ .

(٧) المرجع السابق جـ ١٠ ص ١١٨ .

سأله أن يعلمه اسم الله الأعظم ، فلما وجده غير أمين صرفه عنه ، فأمر الاسم الأعظم ، وإجابة المتوسلين به كان شائعًا معروفًا ، عند المصدقين والمنكرين ، لكن الأمر لم يقتصر عند الصوفية على البحث في اسم واحد ، بل تعداه إلى البحث في الأسماء كلها ، سواء من ناحية معانيها من حيث ما ينبغي للمريد أن يستمده منها ، أو من ناحية خواصها من حيث حروفها إفرادًا وتركيبًا ، ونرى بوادر ذلك عند سهل بن عبد الله ، فقد نقل صاحب اللمع[1] أنه قال : الألف أول الحروف ، وأعظم الحروف ، وهو الإشارة في الألف ، أي الله الذي ألف بين الأشياء ، وانفرد عن الأشياء ، كما نشاهدها أيضًا عند أبي يزيد البسطامي ، ولعلهم يستندون في ذلك إلى الحروف المقطعة في أوائل بعض السور القرآنية الكريمة ، وقد تطور ذلك حتى خرج عن هذه الحدود ، وأصبح علمًا كاملاً يسمى علم الحروف والأسماء ، أو علم السيمياء .

بقى أن نذكر أن الطريق الذي يقطعه الواصلون من الأولياء يختلف بحسب مسلك كل ولي ومجاهداته ، لكنهم يتفقون على أن هذا الطريق ذو مراحل أو منازل يتخطاها السالك مرحلة مرحلة ، ومنزلاً منزلاً ، فإذا استوفى السالك آداب مرحلة منها استطاع الارتحال منها إلى ما يليها ، وقد اصطلحوا على تسمية هذه المراحل باسم المقامات ، من حيث إن السالك يقيم ، أو يقيمه الله فيها ، حتى يستوفي أحكامها ، بحيث يتحقق بها نفسًا وقلبًا ، فيتصف بها ، ويبرأ مما ينافيها من صفاته النفسية ، وهو في خلال مجاهداته ، في أي مقام أقام فيه ، تصادفه بعض النوازل التي تنزل بقلبه فلا تدوم ـ على حد تعبير الجنيد[2] ـ كالشعور بالخوف أو الرجاء ، أو القبض أو البسط أو الأنس أو الهيبة ، أو ما شاكل ذلك ، مما اصطلحوا على تسميته باسم الأحوال ، وورود مثل هذه الأحوال يساعد السالك على التمكن في

---

(١) السراج : ص ١٢٥ .

(٢) المصدر السابق ص ١٦٦.

مقامه ، والتثبت في مجاهدته لنفسه ، وهذه الأحوال لا يد للسالك في اجتلابها ، بخلاف المقامات التي ترتبط بمجاهدته ورياضته ، وتحديد هذه المقامات وترتيبها مما يختلفون فيه ، بل إنها لم تكن معروفة في العصر الذي نتحدث عنه بالصورة التي استقرت عليها فيما بعد ، وإن كان أبو المحاسن بن تغري بردي[1] وأبو الفرج ابن الجوزي[2] قد ذكرا أن ذا النون هو أول من تكلم في مصر في الأحوال ، ومقامات أهل الولاية ، لكننا لم نعرف كم كان عددها ، وكيف كان ترتيبها عنده ، وهل تميزت عنده الأحوال عن المقامات ، وقد نقل عنه في الحلية[3] ، كما نقل عن أبي تراب النخشبي في طبقات الصوفية[4] ، أن المقامات سبع عشرة مقامًا أو درجة ، أدناها الإجابة ، وأعلاها صدق التوكل ، كما نجد عند السلمي[5] ما يشير إلى اعتقاده أن شقيق البلخي المتوفى عام ١٩٤هـ هو أول من تكلم في علوم الأحوال بكور خراسان ، ونحن وإن كنا لا نشك أن القوم قد تكلموا منذ وقت مبكر في المقامات والأحوال ، فقد روى أبو نعيم في الحلية أن أبا سليمان الداراني قال لرجل كان يدعو : يا فتى إن للعارفين مقامات ، وللمشتاقين علامات ، لكننا نعتقد أنهم كانوا يتناولونها ضمنًا ، ودون تمييز بين الأحوال والمقامات ، وأنها بدأت في عصرنا الذي نبحث فيه تأخذ طابعًا بارزًا شيئًا فشيئًا ، حتى تحددت واستقرت في وقت متأخر عنه ، أو في أواخره على أقرب تقدير ، ونحن نجد مصداق ما قلناه في بعض هذه المحاولات ، حيث تبدأ عامة أول الأمر كما ذكرناه عند أبي سليمان الداراني ، ثم تبدأ في التحديد مع خلط بين المقامات والأحوال ، دون تمييز بينهما ، كما نجده عند ابن أبي الحواري (٢٣٠هـ) فيما نقله صاحب الحلية[6] : يقول « انقطع إلى الله وكن عابدًا ، زاهدًا ، صادقًا ، متوكلاً ، مستقيمًا ، عارفًا ، ذاكرًا ،

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣٢٠ .
(٢) تلبيس إبليس ص ١٦١ .
(٣) أبو نعيم جـ ١٠ ص ١٠٤ .
(٤) السلمي ص ١٤٩ .
(٥) طبقات الصوفية ص ٦١ .
(٦) جـ ١٠ ص ٨ .

مؤنسًا ، مستحيًا ، خائفًا ، راجيًا ، راضيًا» ثم يبدأ بعد ذلك في شرح أول خطوة ، وكيف أنها تسلم إلى ما بعدها ، وكل منها بعد ذلك يسلم إلى ما بعدها ، كذلك فيما نقله[1] عن يحيى بن معاذ الرازي (٢٥٨هـ) يقول : الدرجات التي يسعى إليها أبناء الآخرة سبع : التوبة ، ثم الزهد ، ثم الرضا ، ثم الخوف ، ثم الشوق ، ثم المحبة ، ثم المعرفة ، ثم نجد بعد ذلك هذا التفريق المحدد في قول الجنيد (٢٩٧هـ) الحال نازلة تنزل في القلب فلا تدوم[2]، وفيما حكى عنه : لا يبلغ العبد إلى حقيقة المعرفة وصفاء التوحيد ، حتى يعبر الأحوال والمقامات[3] ، ومن المرجح إذن أن التمييز بين المقام والحال من ناحية ، ومحاولة تحديد هذه المقامات ووصف هذه الأحوال من ناحية أخرى ، قد بدأ يبرز بوضوح في أواخر القرن الثالث الذي نتناوله بالبحث ، وقد ذكر عن بعض المشايخ أنه قال : وقفت على الشبلي رحمه الله غير مرة ، فما رأيته تكلم إلا في الأحوال والمقامات[4].

ويشبه ذلك ما قيل بشأن القطب والأوتاد والنجباء والأبدال ، فقد رويت أحاديث مختلفة عن طريق عمر وعلي وأنس ، وغيرهم ، تشير إلى وجود الأبدال بالشام وأنهم أربعون رجلاً ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً ، لم يبلغوا ما بلغوه بكثرة صلاة أو صيام أو صدقة ، وإنما بلغوا ذلك بالسخاء ، وصحة القلوب ، والنصح للمسلمين ، وتختلف الروايات بعد ذلك في العدد ، وفي التوزيع على البلاد ، فهم مرة ثلاثون ، ومرة ستون ، ومرة سبعون ، وأخرى غير محددين بعدد ، بل بوصف خاص ، وأما توزيعهم فقد روى عن علي بن أبي طالب قال : الأبدال بالشام ، والنجباء من أهل مصر ، والأخيار من أهل الكوفة ، وفي رواية أن النجباء بالكوفة ، كما روى عن أنس أن الأربعين موزعون بين الشام والعراق ، فثمانية وعشرون بالشام ، وثمانية عشر بالعراق ، وغير ذلك من الأقاويل الكثيرة ، ومما يلاحظ أنه لم يرد في

---

(١) جـ ١٠ ص ٦٤ .
(٢) السراج : اللمع ص ٦٦ .
(٣،٤) المرجع السابق ص ٤٣٦ .

الأحاديث المروية إلا لفظ الأبدال والبدلاء ، أما غير ذلك من النجباء والنقباء وغيرها فقد ورد في آثار أخرى ، على أنه يجمعهم جميعًا لقب الأبدال ، من حيث إنه إذا مات واحد منهم أبدله الله بسواه ، فسواء كان من طائفة النجباء أو النقباء أو الأوتاد ، أو كان قطبًا فهو بدل من الأبدال ، ولقد روى بعد ذلك ترتيبهم ، وترتيب أعدادهم بحسب مقاماتهم ، على اختلاف في هذا الترتيب ، ويغلب على الظن أن ذلك إنما كان بتأثير بعض الأفكار الشيعية التي كانت تجعل من الأئمة مركز الدنيا والدين ، وأمان أهل الأرض ، فلما جاء دور الصوفية وجدوا المادة مهيأة ، وصادفت عندهم قبولاً ، لأنها تتفق مع اتجاههم العام في أن لله عبادًا اختصهم واصطفاهم ، وجعلهم في المحل الأعلى من عنايته ورعايته ، فنمت عندهم هذه الفكرة حتى اتخذت صورة كتلك التي رواها اليافعي في كفاية المعتقدين[1] : قال بعض العارفين : الصالحون كثير يخالطون للعوام لصلاح الناس في دينهم ودنياهم ، والنجباء في العدد أقل منهم ، والنقباء في العدد أقل منهم ، وهم مخالطون للخواص ، والأبدال في العدد أقل منهم ، نازلون في الأمصار العظام ، لا يكون منهم في المصر [إلا] الواحد بعد الواحد ، فطوبى لأهل بلدة كان فيها اثنان منهم ، والأوتاد واحد في اليمن ، وواحد في الشام ، وواحد في المشرق وواحد في المغرب ، والله سبحانه يدير القطب في الآفاق الأربعة من أركان الدنيا كدوران الفلك في أفق السماء ، وقد سترت أحوال القطب ، وهو الغوث ، عن العامة والخاصة ، غيرة من الحق عليه ، غير أنه يرى عالمًا كجاهل ، أبله كفطن ، تاركًا آخذًا ، قريبًا بعيدًا ، سهلاً عسيرًا ، آمنًا حذرًا ، وكشف أحوال الأوتاد للخاصة ، وكشف أحوال البدلاء للخاصة والعارفين ، وسترت أحوال النجباء والنقباء عن العامة خاصة ، وكشف بعضهم لبعض ، وكشف حال الصالحين للعموم والخصوص ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً ، وعدد النجباء ثلاثمائة ، والنقباء أربعون ، والبدلاء قيل ثلاثون ، وقيل أربعة عشر ، وقيل

---

(١) نقلاً عن السيوطي في كتاب : الخبر لدال ورقة ٧٣ ش .

سبعة ، وهو الصحيح ، والأوتاد أربعة ، فإذا مات القطب جعل مكانه خيار الأربعة ، وإذا مات أحد الأربعة جعل مكانه خيار السبعة ، وإذا مات أحد السبعة جعل مكانه خيار الأربعين ، وإذا مات أحد الأربعين جعل مكانه خيار الثلاثمائة ، وإذا مات أحد الثلاثمائة جعل مكانه خيار الصالحين ، وإذا أراد الله أن يقيم الساعة أماتهم أجمعين ، وبهم يدفع الله عن عباده البلاء ، وينزل قطر السماء» .

أما في الزمن الذي نتحدث عنه ، فإن أول ما قابلنا منه كان عند معروف الكرخي (٢٠٠هـ) ، فقد روى عنه قوله : من قال في كل يوم عشر مرات ، اللهم أصلح أمة محمد ، اللهم فرج عن أمة محمد ، اللهم ارحم أمة محمد ، كتب من الأبدال[١]، ثم نجدها بعد ذلك عند أبي سليمان الداراني الذي يقول : لم يبلغ الأبدال ما بلغوا بصوم ولا صلاة ، ولكن بالسخاء ، وشجاعة القلوب ، وسلامة الصدور ، وذمهم أنفسهم عند أنفسهم[٢] ، وكذلك عند السري السقطي[٣] ، وسهل بن عبد الله التستري[٤] ، ونجدها هي مع الألقاب الأخرى كالنجباء والأوتاد والأمناء عند بشر الحافي[٥] ، والحارث بن أسد المحاسبي[٦] وذي النون المصري[٧] ، وأبي يزيد البسطامي[٨] الذي قيل له : إنك من الأبدال السبعة الذين هم أوتاد الأرض ، فقال : أنا كل السبعة ، ونلاحظ أنها لم تكن في هذا العهد قد نضجت إلى صورة تماثل ما رويناه هنا عن اليافعي ، لكنه كان من المعروف أن طائفة الأبدال من خواص الأولياء ، الذين يحفظ الله الكون بوجودهم ، فيسقيهم الغيث ، وينبت لهم الزرع ، ويدفع عنهم البلاء ، ونحن نجد تفسير ذلك فيما روى أنه قيل لابن مسعود : وكيف بهم يحيي ويميت ؟ قال : لأنهم يسألون الله تعالى إكثار

---

(١) السيوطي : الخبر الدال ورقة ٧٥ ش .
(٢) أبو نعيم : الحلية جـ ٩ ص ٢٧٤ .
(٣) السلمي : طبقات الصوفية ص ٥١ .
(٤) السيوطي : الخبر الدال ورقة ٧٥ ش.
(٥) القشيري : الرسالة ص ١٢ .
(٦) أبو نعيم : الحلية جـ١٠ص٩٩، ١٠٠.
(٧) المرجع السابق جـ٩ ص ٣٣٨-٣٤٩ .
(٨) المرجع السابق جـ ١٠ ص ٣٧ .

الأمم فيكثرون ، ويدعون على الجبابرة فيقصمون ، فيستقون فيسقون ، ويسألون فتنبت لهم الأرض ، ويدعون فيدفع بهم أنواع البلاء[1] ، لذلك يرون أن الأرض لا تخلو منهم إلا إذا أراد الله هلاك العالم .

ولقد عرفنا فيما قيل السبب في تسميتهم بالأبدال ، ولكن ظهر فيما بعد تفسير غريب ، رواه السيوطي عن اليافعي ، أنه قيل إنما سمى الأبدال أبدالاً ، لأنهم إذا غابوا من مكانهم تبدل في مكانهم صور روحانية تخلفهم ، قال : ولا يلزم من ذلك وجود شخص في مكانين في وقت واحد ، لأ، ذلك إثبات بعدد الصور الروحانية لا الجثمانية ، وهذا إغراب لم يبين له أصلاً .

ولقد روى السيوطي في جامعه الصغير أحاديث عن الأبدال منها «الأبدال في هذه الأمة ثلاثون رجلاً ، قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن ، كلما ابن مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً» قال : رواه عن أحمد في مسنده عن عبادة بن الصامت ، وقال : هو صحيح ، ومنها «الأبدال في أمتي ثلاثون ، بهم تقوم الأرض ، وبهم تمطرون ، وبهم تنصرون» رواه عن الطبراني في الكبير عن عبادة ابن الصامت ، وقال : هو صحيح ، ومنها «الأبدال في أهل الشام ، وبهم ينصرون ، وبهم يرزقون» رواه عن الطبراني في الكبير عن عوف ابن مالك ، وقال : هو حسن ، ومنها «الأبدال بالشام ، وهم أربعون رجلاً ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً ، يسقى بهم الغيث ، وينتصر بهم على الأعداء ، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب» رواه عن أحمد في مسنده عن علي ، وقال : هو حسن[2].

ونود أن نورد هنا تعليق ابن تيمية عى الموضوع برمته ، قال في بعض فتاويه : وأما الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك والعامة ، مثل الغوث الذي بمكة ، والأوتاد الأربعة ، والأقطاب السبعة ، والأبدال الأربعين ، والنجباء الثلاثمائة ، فهي ليست موجودة في كتاب الله ، ولا هي مأثورة عن

---

(١) السيوطي : الخبر الدال ورقة ٧١ ى .

(٢) رواها في فصل المحلى بالألف واللام من حرف الهمزة .

النبي ﷺ ، لا بإسناد صحيح ، ولا ضعيف محتمل ، إلا لفظ الأبدال ، فقد روى فيهم حديث شامي منقطع الإسناد عن علي كرم الله وجهه ، مرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه قال : « إن فيهم ـ يعني أهل الشام ـ الأبدال ، أربعين رجلاً ، كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلاً » ولا توجد أيضًا في كلام السلف[1].

نعم ورد لفظ النجباء وصفًا لعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود في كتاب من عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة ، عندما عزل عنها سعد بن أبي وقاص، وولى مكانه عمار بن ياسر على الحرب،وعبد الله بن مسعود على القضاء[2]، جاء في هذا الكتاب : إني قد بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميرا ، وعبد الله ابن مسعود معلمًا ووزيرًا ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر ، فاقتدوا بهما ، واسمعوا من قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسي[3]. ولكن لا يبدوأن هذا اللفظ يحمل هنا مثل هذه المعاني التي حملها فيما بعد على يد الصوفية .

وعلى كل ، فقد كانت هذه الناحية معروفة ، ومعترفًا بها لدى صوفية هذا العهد بصورة عامة ، وبدأت عندهم تتميز وتتحدد ، وتأخذ شكلها الذي ظهرت به واستقرت عليه فيما بعد .

ولا يغيب عنا قبل أن نعلق التعليق الأخير أن نقول : إن وضع الأولياء بهذه الصورة ، وفي هذه الدرجات ، وجعلهم طبقات بعضها فوق بعض ، ربما أثار لدى بعضهم تساؤلاً عما إذا كان من الممكن المفاضلة بين الأولياء والملائكة، أو بينهم وبين الأنبياء ، أما المفاضلة بين البشر والملائكة ، فقد وقعت بين الأنبياء والملائكة ، وبالتالي بين جنس البشر وجنس الملائكة ، لا بين أفراد البشر وأفراد الملائكة ، اللهم إلا ما كان من قول بعض غلاة

---

(١) نقله أحمد أمين في ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٢٤٥ .

(٢) الدينوري : الأخبار الطوال ص ١٢٩ .

(٣) ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٩٩٢/٣ .

الشيعة إن في أصحابهم من هو أفضل من جبريل وميكائيل ، أما المفاضلة بين أولياء المؤمنين والأنبياء فلم أصادف في هذا الزمن من يقول بها من الصوفية ، ما عدا ما روى عند ابن الجوزي من شهادة قوم على ابن أبي الحواري أنه يفضل الأولياء على الأنبياء ، وأنه هرب لذلك من دمشق إلى مكة ، ولعل هذه المسألة كانت مما يتردد على بعض الأفواه المغرضة ، فوجدت عند البعض الرد الكافي لها ، فنجد عند إبراهيم بن أدهم ما يشير إلى أن رتبتهم ومقامهم أدنى من رتبة الأنبياء ، بل أدنى من رتبة الصديقين[1].

وقد سئل أبو يزيد البسطامي هل يزيد أحد على النبي ﷺ فقال : وهل يدركه أحد !! . ثم قال : جمع ما يفهم الخلق وأدركوه من شرف رسول الله ﷺ فيما لم يفهمه ولم يدركه مثل ذلك مثل قربة زرقاء ملآى من الماء ، فما رشح أدرك الخلق وفهموه من شرفه وفضله ، وما سوى ذلك فلم يفهمه أحد ، ولم يدركه[2].

وبعد هذه الجولة نستطيع أن نقول إن العناصر الرئيسية التي تعتمد عليها نظرية الولاية كانت متداولة على ألسنة الصوفية منذ بداية عهدها ، مع اختلاف في الوضوح والتحديد ، واختلاف في المنازع والمشارب التي يصدر عنها كل صوفي . وفي الجدول المرافق بيان لهذه النواحي التي تداولها الصوفية حسب الترتيب الزمني لكل منهم ، وحسب أولوية تناولها عندهم .

فالولاية أمر مشترك بين الصوفية جميعًا ، ومن الطبيعي أن تكون كذلك ، لأنها الغاية التي يرجونها ، ويطلبون التحقق في درجاتها ، والوصول إلى أسمى مراتبها ، لذلك تناولها كل منهم تناولاً إجماليًا ، يهتم فيه بجانب أو جوانب مختلفه منها حسبما يغلب على اتجاهه العام من ناحية ، وحسبما يمليه عليه وقته وحاله من ناحية أخرى ، لكن القصد إلى جمع هذه الجوانب

---

(١) السلمي : طبقات الصوفية ص ٣٣ .

(٢) السراج : اللمع ص ٥١٤ .

واستيفاء نواحيها ، وتحديد العلاقات التي تربط بين أجزائها ، والإحاطة بها من حيث وحدة الموضوع ، ووضعها في إطار واحد يمكن من النظر إليها نظرة شاملة ، فلم يتهيأ لواحد منهم ـ حسبما اطلعنا عليه ـ حتى قام بذلك الحكيم الترمذي ، في رسائله وكتبه التي خلفها ، وهذا ما عبر عنه الهجويري في قوله الذي ذكرناه من قبل : فاعلم أن أساس التصوف والمعرفة قائم على الولاية ، وقد أكد هذه الحقيقة كل الشيوخ ، وإن اختلفت عباراتهم في ذلك ، وكان محمد بن علي الحكيم هو أول من طبق هذا الاصطلاح على أصول التصوف» .

وسوف نتابع في الفصول التالية نظريته هذه في الولاية .

* * *

المسائل المتعلقة بالولاية التي تناولها

		فلسفة النظرية	قيمة العمل	إسقاط التكاليف	العصمة
	المعتزلة	لا فرق بين مؤمن ومؤمن			
	الشيعة	موروثة للإمام		عند بعض الغلاة لمن عرف الإمام	واجبة لحفظ الدين
١	إبراهيم بن أدهم ١٦٠هـ	بالمنة وبالجهد وإسقاط المشيئة	في الدرجة الثانية		نور في القلب يعرفون به الحق والباطل (معنوية)
٢	الفضيل بن عياض ١٨٧هـ	منة وفضل	في الدرجة الثانية		حفظ من الفتنة(معنوية)
٣	شقيق البلخي ١٩٤هـ				
٤	معروف الكرخي ٢٠٠هـ	منة			
٥	أبو سليمان الداراني ٢١٥هـ		علامة لرضا الله أو سخطه		نور في القلب يشغل بأمور الآخرة (معنوية)
٦	بشر الحافي ٢٢٧هـ				لا تمتد يده إلى حرام (مادية)
٧	أحمد بن أبي الحواري ٢٣٠هـ	بالجهد			عون يرده إلى الطاعة ظاهرًا وباطنًا (معنوية)

openkandil.com

الصوفية حسب ترتيبهم الزمني

لرتكاب المعصية	الكسب	المعرفة	الكرامة	المقامات	المفاضلة
		موروثة	برهان الصدق		على الأنبياء وعلى الملائكة عند بعض الغالبة بعد النبيين والصديقين
	عمل الأبطال الكسب من الحلال يرزقون من حيث لا يحتسبون	نور في القلب	المعنوية والتصرف بالاسم الأعظم يرزقون من حيث لايحتسبون		
	لا يأخذ إلا عند الحرج من الإثم			أول من تكلم في الأحوال في خراسان الأبدال	
		علم لدني	إجابة الدعاء وبر القسم		
يسقط من الولاية	ركون من الدنيا ، ولا يصح الاعتماد على الغير	الفراسة والعلم اللدني بشاهد من الكتاب والسنة	صاحب كرامات	المقامات في الجملة والأبدال	
			المعنوية . إجابة الدعاء وبر القسم	الأوتاد	
		كشف وإلهام في اليقظة والمنام	إجابة الدعاء	المقامات	على الأنبياء في رواية ابن الجوزي

obeikandl.com

		فلسفة النظرية	قيمة العمل	إسقاط التكاليف	العصمة
٨	الحارث بن أسد المحاسبي ٢٤٣هـ				يتحرك عرق في إصبعه عند تناول شبهة (مادية)
٩	أبو تراب النخشبي ٢٤٥هـ				قصر يده عن الحرام (مادية)
١٠	ذو النون المصري ٢٤٥هـ	من عين الأعمال ومن عين المنة			ستور العصمة (معنوية)
١١	سري السقطي ٢٧٥هـ				
١٢	يحيى بن معاذ ٢٥٨هـ	بعدم الاختيار			قصر يده عن الحرام (مادية)
١٣	أبو يزيد البسطامي ٢٦١هـ	بالمنة، وبالجهد	في الدرجة الثانية		الحفظ من الشهوات (معنوية)
١٤	أبو حفص ٢٧٠هـ				الحفظ بقوة الولاية (مادية)
١٥	حمدون القصار ٢٧١هـ				
١٦	سهل التستري ٢٨٣ أو ٢٩٣هـ	بعدم الاختيار			
١٧	أبو القاسم الجنيد ٢٩٧هـ	بيذل المجهود أدى منها بالجود	في الدرجة الثانية		

ارتكاب المعصية	الكسب	المعرفة	الكرامة	المقامات	المفاضلة
ارتكاب المعصية لا يتعارض مع الولاية		الكشف وعلم الغيب	المعنوية	الحكماء والنجباء	
	بالضمان		صاحب كرامات	سبع عشرة درجة أدناها الإجابة وأعلاها التوكل	
	من طلبه فهو لا شيء	من عين المنة لا تتناقض مع الظاهر	المعنوية الاسم الأعظم إجابة الدعاء صاحب كرامات	" " " النجباء والأمناء والأوتاد	
		كشف وإلهام لا ينقض ظاهر العلم	لا يركن إليها	الأبدال	
	الرزق مأمور بطلب صاحبه		للأبدال	المقامات السبع	
يسقط من الولاية		كشف وإلهام	في البدايات ولا يركن إليها	الأبدال ، أوتاد الأرض	لا يدرك الأنبياء أحد
	يترك لمن يتركه الكسب	الكشف وعلم الغيب والفراسة	للتأييد في حالة الغيبة ولا يركن إليها		
يسقط من الولاية	الكفاية بالضمان				
يسقط من الولاية	الاكتساب سنة والتوكل إيمان ، ويسقط الله متونة الرزق لمن تفرغ للعبادة		صاحب كرامات وهي للأولياء	الأبدال	
لايتعارض مع الولاية	يستقي الماء ويلتقط النوى	الكشف والفراسة	في البدايات	البدلاء	